البلابل لا تغرد

أمل بورتر

الكتاب : البلابل لا تغرد (رواية)

المؤلف : أمـل بـورتـر

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٦

رقم الإيداع : ١٩٦٨٩ / ٢٠١٥

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978 – 977 – 493 – 239 – 8

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٩٥٥٩ ش طارق أبو النور. الجامعة الحديثة. المقطم. القاهرة

ت / فاكس : ٢٧٢٢٣٨٠٠٤ (٠٢) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥ (٠٢)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : ياسمين عكاشة



البلابل لا تغرد

رواية

أمل بورتر

▪ تنويه

الرواية مكتوبة بلهجة المسيحيين العرب من سكنة مدينة بغداد، يقال إنها أقرب إلى اللغة الفصحى ولهجة مناطق معينة من سوريا، وهي بعيدة تمامًا عن لهجة أهل الموصل... هذه اللهجة الآن منقرضة تقريبًا لأن المسيحيين العرب أكثرهم قد اختلطوا بسكان مناطق أخرى من العراق.

كثير من الكلمات؛ وليس كلها؛ يتحول فيها حرف الراء إلى حرف الغين، ولكن ليس هناك قاعدة عامة، فمثلاً هناك كلمات مثل ركض، رقص، رقم لا تتحول الراء إلى غين، بل كلمات: امرأة، عروس، أريد أروح وغيرها، تتحول الراء إلى غين.

سنوات العجب العُجاب

يوم الدماء

سحبت "فريدة" "وديع" الذي أمسك بكفها، على صدرها تحمل وتحتضن "زهوة"، كتفها ينوء بحمل أكياس ثقيلة، تسارعت خطاها مسرعة، سألت امرأة:

- خالة يمكن أبي مضيعة وتايهة فدنوبة ولو البارحة جيت، كولي لي من هنا المستشفى عا اليمنة؟

قالت لها المرأة:

- امشي كبل وبعدين على اليمنة.

في ردهة مخصصة للنساء والأطفال؛ "منيرة" واقفة قلقة شاحبة مرعوبة، تحتضن بقوة "مهدي" الغافي على كتفها، ما أن رأت فريدة قالت:

- طلعيني فدوة، وديني للبيت يمة بسرعة، أريد أروح للبيت، فدوة وديني، فدوة يالله وديني.

مريضات جهة اليمين من الردهة ابتسمنَّ بخبث يتغامزنَّ فيما بينهن، فريدة تساءلت مذهولة:

- إشصار شكو؟! تلفونج من الصباحيات خلاني أجي مثل المخبلة.

بعد أن أجلست وديع وزهوة على سرير خال كانت تشغله منيرة، التفت فريدة إلى صرخة منيرة وهي تقول:

- لا تكعديهم على هذا الفراش كومو كومو اوكفوا، كوم ماما وديع اوكف والزم إيد زهوة، لا تهدها لا تفكها لا تخليها تروح، وين ناهدة وينها وين خليتيها، يالله فريدة وديني للبيت يمة بسرعة، فدوة وديني للبيت.

باستغراب بكلمات متقطعة قالت فريدة:

- مهدي؟ العلاج شلون، الدكتور والدوه، هاي شبيج ناهدة بالبيت ويه سميرة، هاي الهدوم إللي ردتيها البارحة، فهميني لويش شنو، وديع وزهوة جبتهم ويايه ما اكدر على تلث جهال، هاي شبيج فهميني!.

التفتت إلى المريضات مستغربة مستفسرة، أشحن بوجوههن وأدرن ظهورهن.

بقت منيرة صامتة وهن في باص المصلحة العائد بهن إلى البيت، تستعرض ما حدث لها وتريد أن تفهمه أو تفسره، أنفاسها شهقات

تتباطأ بالكاد تتيح لها استنشاق الهواء، تتسارع نبضاتها ليكاد يسمع صراخ دقات قلبها.

عادت إلى يوم أمس ما بين نهاره وليله، تلك الليلة بكل سوادها، سخامها، إلى الليلة الماضية تستعرض الدقائق دقيقة دقيقة، صورة مهدي أمامها، مهدي في حالة إسهال شديد، ربطت يده النحيفة الصغيرة بأنابيب لتوصل الدواء والمغذي، لقد مضى عليها ما يقرب من الثلاثة أيام جاحظة العينين تنظر إلى ابنها الرضيع معلق بخيط رفيع ما بين الحياة وعدمها.

قالت لها المريضة على يمينها:

– أي عيني أم مهدي وأنت شوكت بطلت أتطلعين بالتفليزيون؟

ردَّت منيرة:

– أي تلفزيون!

– أني شايفتج جنتي بالتفليزيون أتطلعين؟

– أني ما طالعة بأي تلفزيون، إنتِ متوهمة.

– متوهمة شنو جنج كدامي هسة، بهذا الشعر الطويل الناعم اليخبل، والعيون المكحلة الجبيرة الوسيعة، وهذا الخصر والزنود والكراعيين

الله سبحانه وتعالى إمفصلج فصال، جنت أكول من أشوفج بالتفليزيون يمه هاي شحسن هاي ما ينشبع منها ها المرة، نياله لرجلها، أكيد ما يشبع منج، يمكن لو بيده ليل ونهار فوكاج، خوما مثلي رجلي متزوج اثنين علي وأسوي له بالسحر وما يفيد ولا يوصلني، صرت عيع.

تتردد بينهن ضحكات هوس صاخبة، كلمات شبقة ماجنة، ردَّت مريضة أخرى من عمق الردهة:

- شو إلى هسة ما شفنا لأبو مهدي، بس شفنا هاي صاحبتج فريدة تجيج، هاي نصرانية مو هيجي، إنت مو نصرانية لأن ابنج اسمه مهدي.

- أي مبينة نصرانية ماكو بوجها نور محمد.

عقبت امرأة أخرى:

- نريد نشوفه لأبو مهدي حتى نعرف عجب شبعان منج لو لا؟

أعقبت سؤالها بضحكة مستهترة عالية شاركنها فيها النساء.

قالت أخرى:

- النصارى أكثرهم شوعيين، شنو إنت تاكلين من أكلهم؟ شفتها البارحة جابتلج أكل وياها، والله إحنا ما ناكل منهم ولا من الصبة*، ولا من ذولاك إللي ياكلون الجري**، تدرين ذوله النصارى والصبة ما يطهرون ولدهم، صدك شو رجلج ماكو خاف محبوس ويه الشوعيين إللي انكرفوا ذيج الأيام.

بصوت سارح واهن قالت منيرة:

- أني ما طالعة بأي تلفزيون، ورجلي ما محبوس، وفريدة مثل أختي من جنة صغار بالمدرسة إلى ما كملنه الثانوية، طول عمرنا جوارين.

قالت التي في أقصى اليمين من الردهة:

- إحنا متأكدين أنت طالعة بالتفليزيون يا ممثلة يا مذيعة.

بضيق صدر قالت منيرة:

- أني لا ممثلة ولا مذيعة، أني مرية ربة بيت وعندي جهال اثنين.

بنكران وتجاهل قالت إحداهن:

- هو إللي عندها هالحسن والجمال الكل يشتهيها، لازم لو مذيعة لو ممثلة، خاصة إمصادكة نصرانية ولازم تكون شوعية، لأن كل

---

* أتباع الديانة المندائية.

** أكل السمك الجري: إذ أن بعض الشيعة يحرّمون أكل هذا النوع من السمك.

النصارى شوعيين، والنسوان الشوعيات كلهن أمهات كراع، يطلعن بالتفليزيون إمفرعات وناثرات شعرهن،محمرات ومكحلات وافقنها بقية المريضات بهزات من رؤوسهن أو بكلمات التأييد. بقيت منيرة ممسكة بقوة بيد مهدي البضة الناعمة الخالية من الأنابيب، تنظر إلى وجهه الذابل متجاهلة كلامهن، إذ لم تكن تملك الطاقة ولا الرغبة في مجادلتهن، هذا يومها الثاني في المستشفى، تتيبس، تذوب ألمًا.

هجم الظلام حالك أسود ومنيرة مازالت ممسكة بيد مهدي الأخرى، تحاول منحه قوتها وبعضًا من دفئها، عند مدخل الردهة دخلت امرأة بقدمها اليمنى، بصوت واضح مسموع تبسمل وتحوقل، عينيها تدوران، تبحثان، اقتربت، نظرت إلى منيرة كأنها وجدت ضالتها قائلة:

- يمه بنيتي أم مهدي إنتِ مو تمام؟ الكل يكولون هاي صار لج يومين بلايا نوم وأكل، والجاهل على المغذي وساكت، بنيتي ينراد لج شوية نوم حتى يردلج حيلج، بنيتي أخذي هاي الحباية مالتي أني ما ريدها الليلة هسة، تنامين ومن تكعدين الصبح يصير عندج شوية حيل وكوة.

- خالة شلون أنام واعوفه، لازم أبقى لازمة إيده حتى ياخذ حيلي ويطيب.
- تمددي على الفراش يمه ولزمي إيده ونامي، أخذي كلاص المي وبلعي الحباية.

بطاعة فعلت ذلك منيرة. صحت فجرًا مرعوبة، يدها ما زالت ممسكة بيد مهدي الصغير، نظرت إليه هاجسة، ابتسم لها الطفل، قبلته بحرارة، اقترب من ثديها يطلب رضعة، أحست أن حمالة الصدر قد أرخيت، أرادت أن تعيد شدها وأن تفرغ مثانتها، دخلت الحمام رفعت أطراف فستانها العريض، وجدت أن حمالات الصدر قد قصت من الأمام، بخوف ودهشة أنزلت كفيها محاولة نزع لباسها لتتبول، عبثًا حاولت إذ كان يبدو لباسها ملتصقًا بوركها، نظرت إلى لباسها وجدته قد عُقد من كِلا الطرفين من ناحية الورك عقدات متتالية قوية بحيث يصعب أن تنْزله، صعقت، هاجت أرادت أن تكسر زجاج النافذة وتخرج مسلحة وتهاجم كل من في الردهة، إلا أنها فكرت بمهدي، بتلك الأنابيب التي تقيده، ذهبت مسرعة للممرضة قائلة:

- ابني صار زين أريد اطلع هسة، أريد أخابر أهلي.

أشارت إليها الممرضة تدلها على التليفون العمومي.

باص المصلحة يسير بتثاقل بطيء يترنح يمينًا ويسارًا، منيرة تستعيد صور الليلة الماضية، ماذا حدث؟ كيف لحمالة الصدر أن تشق أو تقص من الأمام في حين أنها تربط من الخلف؟، وللباسها أن يعقد من كِلا الطرفين بهذه القوة عقدات متتالية؟ واضح أن حمالة الصدر واللباس قد قصا بمقص، كيف لم تشعر بهذا؟ من فعل ذلك؟ ماذا ستفعل، لمن ستقول؟.

فريدة تحتضن زهوة النائمة على صدرها ووديع جالس صامت، تحاول أن تفهم لماذا منيرة تبدو منهارة زائغة العينين، مهدي قد شفي، يحاول لقم ثدي أمه علامة العافية. آثرت فريدة الصمت فهن في باص المصلحة والطريق طويل.

في منتصف الطريق طلبت منيرة من فريدة أن تنْزلا لأخذ تاكسي لأن الطريق طويل وباص المصلح بطيء جدًا، وصلتا بيت فريدة، منيرة زائغة ضائعة تائهة منهكة جامدة القسمات، أشارت إلى فريدة أن تأخذها إلى الحمام مع مهدي لتساعدها في تحميمه.

تبعتها فريدة، في الحمام ومنيرة تحتضن مهدي بيدها اليسرى، رفعت فستانها بيدها اليمنى إلى ما فوق صرتها حتى وصلت إلى نهديها، أشارت لفريدة إلى حمالة الصدر المقصوصة بعناية، وللباسها المعقود قرب الورك من كِلا الجانبين، شهقات مخنوقة العبرات سدت فمها بقوة تحبس الكلام، ترفض أن تحرك شفتيها، تكاد تختنق، ومن بين ساقيها مخترقًا قماش لباسها ترشح؛ ونزل ماء مصفر غامق على الأرض اللماعة البيضاء صبغها بلون بني عكر، سار ذلك السائل المفعم برائحة البول النفاذة المقرفة، ومنيرة ترتجف وقد صكت أسنانها، تلقفت فريدة مهدي، أخذته من يد منيرة الراجفة الراعشة، جلست فريدة على حافة المرحاض فزعة، فمها مفتوح على أخره يخرج منه فحيح، حشرجة وبحرقة دموع تنهمر تبلل صدرها المفتوح، حشرجات تتناغم مع صوت منيرة المبحوح المخنوق، منيرة تنطق بكلمات لا معنى لها، جمل متقطعة غير مفهومة، عبرات تنسكب تقطع النياط تخترق الحشا تحرق السمع والمقل.

بصوتٍ عالٍ نادت فريدة على سميرة، طلبت منها أن تأتي، قالت لها:

- سميرة إنتِ حبابة وعاقلي، خذي مهدي وديغي بالك علينو، خلينو على القنفة الكبيغة وخلي يمو مخيديد حتى لا ينقلب، خلي المصاصة بحلقو وإذا بكى شلينو واحضنينو أو خلينو بعرابنتو وهزينو بلكي ينام، لا تنسين عينكي على زهوة، قنعي وديع خلي حلو يلعب وياها بلعاباته. لا تطلعون بالطارمة ولا الحديقة، ها عيوني افتهمتي حبابة؟ سدي باب الهول ولا تخلين وديع وزهوة يفتحون الباب ويلعبون بالكوريدور، إذا اندق باب الحوش لا تفتحينو تعالي علي لو صيحيني.

بحزم وإصرار التفت فريدة ماسكة منيرة من كتفيها قائلة لها:

- منيرة سمعيني زين، إحنا هسة بيا وضع فتح الله وهادي مختفين وربج يعرف شوكت راح نشوفهم، بديع محبوس وين ما أدري بس أدري ما مقتول، لكن كلما أدور علي تنسد البوب بوجهي، ماماتي أريدج تشدين حيلج، أني خابرت خالة فاطمة وبعد شوية راح تجي، عيوني منيرة نريد أمج ويانا، نريد خالة فاطمة ويانا، وراح أخابر دكتورة فردوس تجي تفحصج اليوم، افتهمتي أريدج قوية وسباعية، أمي وأبوية عدنا مسوؤلية هذولة الأطفال.

من خلال دموعها قالت منيرة:

– آخ فريدة آخ فريدة، ليش هيجي صار بينه، دا أتذكر من يوم ١٤ تموز صحى بديع الفجر، وكف يم التيغة يباوع علينا ويا عيني عليه مدرناله بال وكام واجالج ركض، اويلي علي فريدة اتعزيت واتصخمت، ما أدري إشصار بذيج الليلة الكشرة المن اسولف المن اكول، أوف فريدة يمه فريدة سويلي جارة.

أخذت فريدة تستعرض صور ذلك اليوم، تذكرت عندما جاءها بديع راكضًا حكى لها كيف أنه استيقظ على وقع أصوات صاخبة ضاجة، قفز من فراشه، لم الكلة* بسرعة، وقف بالقرب من التيغة محاولاً أن يلفت نظر الجيران ويتكلم معهم إلا أن ضجيجهم شوش السمع، تاهت الكلمات بين الأصوات العالية، يبدو أنهم صحوا على غير عادتهم، لم ينتبه له أحد ولكنه علم أن هناك حدث كبير جدًا قد حدث، سمع صوت أقدامهم المسرعة وكأنهم يتقافزون، أسرع ينْزل السلم راكضًا ودشداشته بين أسنانه مخافة أن يتعثر بها، وجد كل من البيت يصيح منفعلاً، صاح به والده:

– اركض بديع روح لبيت عمك وقله لفريدة فتح الله غاح يطلع من السجن لأن صدر بيان بإطلاق سراح كل السجناء السياسيين.

---

* الناموسية أو الغطاء الذي يمنع دخول الحشرات إلى أسرة النوم فوق السطوح.

أكملت منيرة:

- تتذكرين فريدة من جيتيج للبيت أوف فريدة أريد أموت ما أريد أعيش بهذا الوضع القتل والدماية والاعتداءات.

عادت فريدة بذاكرها إلى صباح يوم تموزي حيث كانت جالسة في طارمة البيت الأمامية، يحيط بها الأهل والأصدقاء، ومنيرة مشغولة تقدم الشاي والكليجة*، عيونها لا تبرح بوابة البيت الواسعة تنتظر بقلق وصول فتح الله، ووديع غاف في حضنها، لبثت صامتة ساكتة لا تتكلم، منيرة تقول:

- لا تقلقين هسة يجي، ربعه من الجوارين كلهم راحوا عليه بسجن الحلة، الحلة هيانها كلها ساعتين ويوصلون، لا تباوعيني هيجي وعيونج تعتب علي، أي شلون اخليج ترحين وأنت مرضع، حظج زين بعد ما كمل ثمنت أشهر بالسجن وراج يجي ويفرح بوديع، وانفرجت وبعد كلنا لا نشوف سجون ولا اعتقال ولا مظاهرات ولا ضيم ولا قهر راح اتصير خير وكمرية* ويرجع للوظيفة، وأنت كعدي بالبيت عيوني فريدة بلا شغل ولا شلاع الكَلب.

---

* كعك العراق.
* كمرية أو قمرية: عريشة العنب أو الكرمة عندما تغطي مساحة معينة، والليلة المقمرة كذلك.

وصل الأصدقاء وحدهم قائلين:

- سيعود بعد أيام هناك إجراءات قانونية لإطلاق سراح السجناء.

عقَّب أحدهم:

- مو يعني من ينذاع البيان يفكون باب السجون.

بحسرة قالت منيرة:

- تتذكرين فريدة من كتلج راح تصير خير وكمرية، فريدة وينه الخير وين الكمرية.

جاء صوت سميرة قائلة:

- خالة فاطمة بالباب افتح لها الباب لو لا؟

وبدون أن تشعر فريد أطلقت ضحكة مع شبح ابتسامة على وجه منيرة المنهك:

- ولك سميرة لا تصيغين حمارة، طبعًا تفتحين الباب.

ردت سميرة:

- أي مو إنتي قلتي لا تفتحين الباب لأي أحد.

• • • •

سنة الجوري

يوم يا تين يا توت

سار "وديع" مختالاً بأناقته وجورية حمراء صغيرة معلقة في صدر بدلته، قطع الشارع من جهة مصرف الرافدين، باهتمام وشغف ينظر إلى الرصيف المحاذي حيث دائرة البريد، يبتسم خفية ويواصل سيره الهادئ المستقيم، لا يتوقف عن النظر إلى الرصيف الآخر، ما أن يتأكد من أن "زهوة" تفعل نفس الشيء حتى يوجه نظره جهة أخرى والابتسامة التي لا يقاومها تتسع، كذا تفعل زهوة... تعديا سينما الزوراء، واصلا السير، هدف واحد يجمعهما، أن يلتقيا في مكان معين.

عبرت زهوة الشارع، سارت بسرعة أمام وديع، أخذ يتبعها ببطء مبقيًا مسافة محددة بينهما، وبين فينة وأخرى تستدير برأسها، عيناها محرضة تلمع ببريق خاطف، تلمحه يسير خلفها، وقفت أمام مدخل مقهى تنظر من بالداخل، وقف وديع قرب المقهى عند بائع الكرزات والصحف كأنه يحاول شراء شيء ما، أشارت له برأسها

أن لا... فهم وديع، واصل سيره خلفها وهي تغص بابتسامتها الماكرة.. حافة فستانها القرمزي تتماوج بغنج مع حركة وقع أقدامها الرشيقة الصاخبة، الحزام المشدود بقسوة على خصرها النحيل يفصل بوضوح تدويرة ثدييها عن اهتزاز ردفيها ودوران وركها، خصلات شعرها المتناثرة تتدافع بتهور ما بين خدها، رقبتها، كتفيها، لا مستقر لها، تبدو الخصلات قلقة، حائرة في اختيار مستقرها ما بين الجيد الناعم والنهدين المتقافزين طربًا وفرحًا من بين طيات الفستان.. تلتفت نحوه بابتسامة عطشى وخدها عجنت فيه دمائها، تلونت بشرتها بلون تفاحة ريانة حان قطافها.

استمر وديع في سيره متخدرًا يتبع مشية جسد زهوة، حريصًا على متابعتها، بعيدة هي تلتفت إليه تهمس محركة شفتيها يفهم ما تقول، لأنه يرى صوتها لا يسمعه، تضحك عيونه قبل أن تصل الابتسامة إلى شفتيه، تستدير هي، تواصل المشي، يطرب لصخب وقع كعب حذائها العالي الدقيق. همس لنفسه الحياة متورطة معي، إنني ألعب بها، أسيرها وفقًا لمقاسي لا لمقاس المجتمع الذي أعيشه.

زهوة تسير بخطوات متناغمة صغيرة، عينا وديع تستقر بين لحظة وأخرى على تلك الأقدام الرقيقة، أصابع أقدامها المطلية بالأحمر الفاقع تخرج بتحدي من فتحة الحذاء القرمزي، الذي يحاصر تلك الأصابع ويتمسك بها، مشط قدمها يعلو ويعلو ليستقيم مع الكعب العالي، لا شيء يربط حجل القدم بالحذاء، فيبقى كعبها الوردي يتحرك بحرية، يرتفع وينخفض، يميل يسارًا ويمينًا، بانحناءات قوية يخضع لرغبتها بالسير بغنج ودلال. جسم زهوة فخور بما يملك من الغواية، كأن انحناءات جسدها الأنيقة قد خلق العالم بكل منحنياته وتكوراته وانسيابياته على مقاساها.

حركة، مشي سريع، عربات تتزاحم، ضوضاء وفوضى تعم الأرصفة، أصوات منبهات السيارات، الشارع يبدو صابر على بلواه، فهذه الأرض التي احتوته لا تملك الصوت لتحكي ما قاست، وديع يمشي الهوينا، يتبع هواه ونشيد الحب الصاخب في ثناياه، منسجمًا مع أحلامه غير متوافق مع واقعه، تدخل زهوة محلات أوروزدي باك* تتجه إلى قسم العطور، تختفي عن ناظريه،

* محل كبير يحتوي على بضاعة مختلفة.

يتبع عطرها، ينسل بين الزبائن يجدها تبحث عنه، تقع عينيها عليه، تُطلق زفرة راحة يبتسم لها، تشير إلى الباب يهز رأسه أين؟ ترد نظراها لا أدري؟. يُشير إلى الطابق الأعلى بنظراته، تفهم، تصعد السلالم ببطء، تتعمد أن يكونا سويًا، همس:

– أين سنذهب؟

– لا أدري

تقول همسًا بالكاد يسمع:

– إلى قسم الملابس الرجالية.

يهز رأسه مبتسمًا.

تقف أمام ربطات العنق، يقف جنبها، تأتي البائعة تعرض خدماها، ترد عليها زهوة: "لم نقرر بعد أي ربطة نشتري"، تتركهما، تذهب إلى زبون آخر. تشاغلا بتقليب ربطات العنق، أحدهما يمررها إلى الآخر، من بين ربطات العنق تتعانق أصابعهما، "أشتهيك" قال، ردت: "أتمناك"، تشابكت أصابعهما، زحف بسباته على راحة يدها سحبتها بسرعة على وقع أقدام البائعة. استدارا بسرعة لتفويت فرصة السؤال.

جاءت البائعة ثانية، انسلا بهدوء قبل أن تصل إليهما، نزلت زهوة مسرعة تتهادى على السلالم العريضة، سبقها بخطوة أو أكثر، مرَّت بالقرب منها امرأة وطفلة، تباطئا بالنـــزول، خلت السلالم إلا منهما، تبادلا كلمة أو اثنتين.

في الشارع وقفت أمام محلات مختلفة، وقف هو بعيد خطوات عنها، رسم إشارة الصليب على وجهه، فهمت، سارعت بخطاها قبله إذ عرفت مسار اتجاهها، حاول التباطؤ لم يستطع، لهفته تدفعه، كأن زهوة ستختفي منه أبدًا.

دخلت الكنيسة بعد أن وشحت رأسها بإيشارب حريري، جلست على إحدى المصاطب داخل الكنيسة، جاء رجل وأوقد مصباحًا كهربائيًا يضيء تمثالاً لمريم العذراء، انحنت بخشوع إلا أنها شعرت بأنها شيطان رجيم يستغفل الناس والسماء أجمعين، وهم أمانيها يسيِّر يومها، حياتها، بوقع غير متجانس النغمات، الكنيسة فارغة إلا من امرأة عجوز ورجل كهل جلسا في أول الصفوف، بقيت تنتظر وقع أقدامه، لم تدرِ ماذا تفعل فإنها في أرض غريبة عنها، موحشة تمامًا، لا تنتمي إليها ولا تميزها، شعرت بغربة قاتلة، وحدة

مضنية متعبة، رغم أنها قد دخلتها عدة مرات بمناسبات مختلفة إلا أنها ستبقى أجواء غير أليفة... عبقت رائحة (الأولد سبايس) العطر الذي يستخدمه بعد الحلاقة، تنفست بصوتٍ عالٍ علامة الارتياح، ركع على المصطبة التي خلفها وقال لها:

- يجب أن نخرج من هنا، فبعد قليل ستمتلئ الكنيسة بالمصلين، اذهبي إلى حوش الكنيسة هناك نبقتنا الكبيرة وشجرتا التوت والتين، اجلسي على المصطبة تحت أغصان شجرة التوت، فاكهتها قد نضجت تتدلى منها، حاولي الانشغال بقطفها.

ساحة الكنيسة واسعة مليئة بأشجار التين والتوت مع قمرية عنب، جلست ملتفعة بالإيشارب تحت شجرة التوت، حيرتها كانت أقوى منها، التقط وديع ثمرات توت وأعطاها لزهوة، وضعت الثمرات في كفها وأخذت تمرر عليها سبابتها، اصطبغ كفها بلون عصير الثمرات الأرجواني القاتم، رفعت رأسها، وقع نظرها على تمثال للمسيح مادًّا ذراعيه مظهرًا آثار المسامير في كفيه، أحنت رأسها وبقت تتلمس نعومة ثمرات التوت في كفها، إذ لم تتخيل يومًا أنها ستدخل كنيسة، ولكن منذ أن دخل حياتها وديع متسللاً أصبحت

هذه الكنيسة رغم وحشتها وغربتها، (وأوروزدي باك) بازدحامه وفوضاه مكانان آمنان لتبادل جملة أو أكثر فقط، ومكان لتقرير وجهتيهما. إنهما نقطة، محطة انطلاق لا أكثر.

قال وهو يضع خاتمًا في بنصره الأيسر ويناولها الخاتم الآخر التقليدي الذي يرتديه المتزوجون:

– ما رأيك بكورنيش الأعظمية ؟

وافقت على الفكرة. دجلة ينساب هوينا وكورنيش الأعظمية تحرسه أشجار القوغ العالية، في حين تحنو عليه البرحيات الشامخات، تنحني سعافاتهن بشهوة وشوق لملامسة دجلة بشبق وهو ينساب بعيدًا عنهن... قال لها:

– أشتاق لكِ بجنون وأتعذب بك وأنتِ قربي.

بغنجٍ ردت: أنت فقط؟

– كل الأفكار والهواجس والأصوات تردني إليكِ ولا أستطيع أن أنزعك منها.

ردت وهي تسبل أهدابها وكأنها في حلم: أنت فقط؟ .

• • • •

سنوات العجب العجاب

ليلة الجسد

مثقلة بحقيبة يدها الطبية؛ الإرهاق مرتسم بوضوح عليها، دخلت "فردوس" مسرعة تتبع خطوات فريدة القلقة حيث منيرة جالسة على سرير، تضم ساقيها وتطويهما تحتها، كفَّاها مشبوكتان بقوة، فستانها تتدلى حافته بفوضى، حمالة صدرها ملقاة على الأرض كجسد أنثى مقطوعة الرأس مشمرة الساعدين، بالقرب منها لباسها المقصوص، يبدو كأشلاء جسد مبتور مغتال، وجه منيرة ذابل مصفر فقد نضارته، فكها متدلي، أكتافها سقطت عن مكانها، تهز جسدها ببطء شديد إلى الأمام والخلف كمن تنوح في مقبرة خالية من القبور.

جلست فردوس بالقرب منها، حاولت استنطاقها بلُطف وهي تمسد شعرها المبعثر المنسدل بفوضى عارمة، كأن الخصلات ترفض أن تلتم وتتناسق، من بعيد تأتي أصوات الصغار في لعبهم ولهوهم، فريدة تمسك بقدح تحاول أن تسقي منيرة قطرة قطرة، فردوس تأخذه منها وتكمل ترطيب فم منيرة بهدوء، وتروي قائلة:

- لخاطر الله فريدة ذبي الأسود، الناس اتكول الأسود يجر أسود وخاصة بديع بعده مسجون وهادي وفتح الله مختفين.

هز فريدة رأسها قائلة:

- اثنين مو واحد، عمي يوسف وزوجته كوثر شلون اذب الأسود، ما دافنة رأس بصل، وشلون قتلوهم رمي بالرصاص وبنص بيتهم بعد ما شافوا جهاز الرونيو ومنشورات الحزب.

ازدادت هزات جسد منيرة، سكتت فريدة. بتأني وهدوء شخص محترف، أمسكت فردوس ساق منيرة وهي تربت على كتفيها، تحاول بهدوء مقرر موزون الفعل لتدفع الساق الواحدة بعيدة عن الأخرى، بيدها الأخرى بحزم جرَّت جسد منيرة نحو الفراش لتستلقي، فتحت حقيبتها الطبية وهي تنحني، تقترب من منيرة بصوت حازم هادئ تشرح لها أنها ستأخذ منها مسحة لترسلها للمختبر للتأكد من جنس المعتدي.. باستسلام كامل ولكن متشنج استلقت منيرة مبعدة ساقيها قليلاً عن بعضهما، نظرت إليها فردوس بحب وعطف قائلة:

- خليني أسوي شغلي عيوني، بعد المسحة أريد افحص الموضع، لازم تخليني وتسترخين.

دخلت خالة فاطمة الغرفة قائلة:

– نيمت الزغار وأبي هم راح أنام الساعة عشرة ونص بالليل هسة، أكيد الدكتورة تعبانة مثلي، عيوني دكتورة فردوس لو تدرين طريقي حسيت بيه شكد طويل اليوم، أول ما خابروني الصبح إجيت وما مصدكة أوصل وأشوف إشصار، عيوني أريد أعرف.

أكدَّت لها فردوس أن منيرة بدون شك قد تعرضت إلى نوع من الاعتداء الجنسي قائلة:

– إن عضوها التناسلي ونهديها والمناطق المحيطة بهما مليئة بالكدمات وآثار لتهيج جلدي واحمرار، مع خدوش بسيطة وسطحية غير عميقة قريبة من الجلد، كأنها لأسنان أو أظافر، وبما أن منيرة كانت بدون طعام أو ماء لمدة ليست بالقصيرة، ربما تجاوزت ثماني وأربعين ساعة فإن المخدر الذي تناولته لابد أن يكون حبوب بثادين، ولحسن الحظ أنها استيقظت صباحًا، ربما شعورها الأمومي قد جعلها تستيقظ، ونحمد الله لأنها وعت لأنها قوية البنية، وإلا لربما كان هناك تأثير سلبي واختلاطات، الآن لنفرح أنها واعية لكنها بحاجة إلى السوائل والطعام والتهدئة، ابقوا معها، لا تتركوها وحيدة، حافظوا على الهدوء، ما أن أحصل على نتيجة المختبر

سأتصل بكم تليفونيًا، وإذا وجدت حاجة لقدومي سآتي بدون أن تقلقوا، سنجد الحلول المناسبة وسنتصرف بحكمة وتعقل.

فاطمة ربتت على رأس ابنتها، غمرتها بالقبلات، بشوق احتضنتها، تعلقت برقبتها منيرة منهمرة الدموع، بقوة أحاطتها بذراعها ومن خلال نشيجها جاء صوتها الواهن الضعيف:

– يمه لا تعوفيني يمي ابقي يمي يمه يمه يمه، شنو الغلط إللي سويته أني، ليش هذوله النسوان كرهوني، لا أعرفهم ولا يعرفوني، عرفوا منو آذاني وكص هدومي؟ وشلون ومنو كص هدومي وعكدها، ليش لأن أني مو منهم مو مثلهم، يمه كوليلي ليش ليش ليش شنو إللي صار ليش العالم اتغيرت، شو إحنا ما تغيرنا بقينا نحب الكل، يمه كولي لي إحنا همين اتغيرنا اهنا همين صرنا موخوش اوادم، شو إحنا مارضينا بالخرابيط والهوسات، شو أني مشبورة • بجهالي بوظيفتي وشغل البيت، أريد أعرف المن آذيت أني، يمة فدوة أروح لج كولي لي.

• منهمكة بقوة وبفوضى

بصوت حازم وواثق ردت فاطمة:

- بنتي اسم الله عليج إنتِ تاج على الروس لا إلج ولا عليج، وهسة الكل رايح طايح البشر صارت اتغار، تحسد، تحقد، تكره وما تحب الخير تريد بس إللي مثلها، يمه بنتي أني وياج وما اعوفج، هاي شدة وتزول والظلم لو دام دمر، هسة الواحد كام يدور حجة حتى يظلم الثاني، صار الظلم ونسه وشطارة الأخ يقتل أخو، بس أذية وانتقام، سجون، قتل، تعذيب وهذول إللي اذوج لازم اتعودوا على الأذية وستأنسوا بيها، صارت شيء عادي عدهم. باجر عكبه وبحيل الله راح تصيرين زينة، ومهدي الحمد الله صار زين، وعندج ذولة الجهال الاثنين وورود لازم اتفكرين بيهم، من يجي هادي بعد ما تصفى الدنيا، كلشي يصير تمام، يمه بنيتي كلنا وياج بس شدي حيلج حبيبتي.

بعد قبلة حانية احتوت الحب كله من فاطمة لابنتها منيرة، ومواجهة لعيون ابنتها الذابلة قالت:

- يمه بنتي افطمي المهدي من اليوم.

أيدهًا فريدة بهزة رأس خفيفة، إذ لم تقوَ فريدة على أكثر من هزة خفيفة شعرت بأنها عاجزة غاب عنها حيلها، انهد وانحل، وفقدت كل قوهًا وحيويتها.

بقين ثلاثتهن ملتصقات الواحدة تنعطف وتميل نحو الأخرى، منيرة في الوسط تلف رقبة والدهًا بيد وبالأخرى تشبك وتتشبث بكف وأصابع فريدة، كلتاهما تسنداها بقوة وتحاولان أن يبقى جسد منيرة منتصبًا ثابتًا، لا تتمايل إلى الأمام أو الخلف، وقطرات الماء تصبها فاطمة قطرة فقطرة تنْزل على شفاه منيرة اليابسة المتقشرة لتمنحها الطرواة.

من نافذة نصف مفتوحة تسللت أشعة قمر يقاوم الظلام الحالك، ويحنو يعكس شعاع نوره على وجه منيرة الذابل. بقين متماسكات وقد وحدَّهن الألم والخوف وكأنهن أصبحن جسدًا واحدًا، كُلٌّ منهن ألغت نفسها كُليًا وأصبحت كتلة من الحب والحنان للأخرى، غارقات بالفجيعة التي تلفهن كما لفَّت البلد الذي احتواه ظلام، صمت، خوف ورعب، فزع، دماء ودماء ودماء.

بقين على جلستهن تلك غافيات، رأس الواحدة يسقط على كتف الأخرى، أكفهن متشابكات باسترخاء إذ غلبهن النعاس، أجسادهن تتمايل، تتكئ على الحائط الذي يسند السرير، رنَّ جرس الهاتف، أفزعهن، استيقظن على رؤية أشعة فارعة للشمس تغمر الغرفة، ركضت فريدة ترفع السماعة، سكتت برهة بدت للأخريات دهرًا، لم تقل سوى:

– أكيد أكيد، إنتِ متأكدة، ألف رحمة للميتين والطيبين وفضلج ما ينسى دكتورة.

استدارت نحو فاطمة ومنيرة تصرخ بصوت متشنج مخنوق كأنه الفحيح خارج من فج عميق:

– ولج نسوان إللي اغتصبوج واعتدوا عليج، يمه اويلي حتى النسوان صارن وحوش، شلون لا، غير صاروا مثل ذيج إللي بذاك اليوم الأسود تصرخ من الإذاعة وتكول اسحلوهم اقتلوهم.

• • • •

سنـة المشمـش

يوم الأبواب المؤصدة

قالت "فريدة" وشبه ابتسامة على وجهها المنهك وهي تحاول إخفاءها بقوة:

- طبعًا غاح يجون اليوم يخطبووه "لناهدة"، أم جورجيت قالت خوش عائلة من الموصل.

ردَّت عليها سميرة:

- يعني جماعة بقة زي بقة زي*.

ابتسمت بمرارة وهي تقول:

- بس ليطلعون من جماعة شلخ ملخ**.

صرخت بها فريدة:

- انجبي ولك بلا سخافات.

* جزء من لهجة الموصل والتسمية التي يطلقها أهل بغداد على سكان الموصل.
** إشارة إلى اللغة الآرامية والكلدانية والسريانية التي يتحدث بها سكان سهل نينوى من القرى المسيحية.

نهضت ناهدة وابتسامة ماكرة تُغطي وجهها الذي أدارته نحو سميرة، وهي تسحب خلفها أذيال الروب الكريشية المطبوع والملون بأزهار صفراء وزرقاء كبيرة الحجم، وقفت أمام المرآة وأمسكت بالمشط الموضوع على طاولة التواليت، وأخذت تسرح شعرها الطويل الناعم. ردت سميرة:

– إنت طيغة من الفغح لأن ويحد لا تغفينو ولا يعغفكي لا شفتينو ولا شافكي جو أهلو يخطبوكي، وهو وينو الأفندي؟ وبعدين كنكي تعيشين أيام بيبي فهيمة تتزوجين ويحد لا تعغفينو ولا شفتينو وعلويش الفغح، لا تستعجلين بعد إلى هسة ما أحد قال شيفين الخير وكللش* مبارك والأفندي ما شفنه شكولو.

التفتت إليها ناهدة بشماتة ولَمّت أصابع يدها اليمنى وجعلت منها قبضة، وبدأت تديرها على راحة كفها اليسرى علامة الغيرة والحسد. أحنت سميرة رأسها بمذلة وانكسار وقالت:

– أعغف أنا أكبغ منكي وخالتك وإلى هسة مجاني النصيب، والكان مقسوم لي ما عندي خبر منو، فص ملح وذاب، العائلة كلها كانت

---

* إشارة إلى الهلاهل.

تقول سميرة غاح تتزوج بديع، ابن عمه، فهذا المتوقع، ما عندي ابن عم غيرو ولا لبديع بنت عم غيري، كانوا يعتقدون مصيرنا تحدد، ولو فريدة ما كانت تشجع الفكرة لأن بديع أكبغ مني بسبع سنين وما دخل الجامعة، بس أشقد بديع كان جذاب أنيق، تعلم الإنكليزي بسرعة بعد ما صادق الرهبان الفرنسيسكان ابيعة اللاتين ولو هو ما كان متدين بس كان يحبم للرهبان اللاتين، ويقول عليم مثقفين وما يفرقون، وقدر يشوف لو وظيفة ويتعين موظف بالبنك وبراتب كانوا يحسدون علينو بعدما كمل الثانوية. والوظيفي حصله بذراعوا لا واسطة ولا منية من أحد، امتحنونو ونجح بدرجة ممتاز. أي أيام زمان هام كان اكو شوية إنصاف ورحمة وعدالة، مو مثل ها الزمانات. بس داقلكي أنا غاسي عيلي وما أقبل بالغيح والجيي، من الموصل ليش يابة؟ تعغفين ليش لأن من قلة الخيل شدو على الكيلب سروج، وين غاحو أهل بغداد أهل الأصل والفصل إللي نعرفهم ويعرفونا، وتقبلين تتغربين عن بغداد وتغوحين تقعدين بالموصل.

بصوت خفيض ضعيف استمرت سميرة، بكلمات تتباعد، تتباطأ، مترددة متلكئة متقطعة الحروف، تجرها جرًّا، صادرة من بئر عميق قائلة:

- ولك غاح يخلوكي بيت احما...كي، تخبزين خبز الموصل.. وتطبخين كشكا وب... رغل، وتمن نكازة، وتنحرمين من تمن العنبر.. وغيحتو إلى تو...صل لسابع بيت، وتخر الغوالات علينوه ودهن الرمادي الحر... إللي يذوب بالحلق ويدهن الزغدوم... ويغد الغوح.. ولوبية الشواطي.. يابة شقد طيبي طويلي... وحباته كنه لولو... مسفط... الويحد... يشتهيا من اسمه لوبيا والشواطي، وتذكرنا بقعدات الكمرية على الشواطي والهوا الينعش.

ردت ناهدة:

- ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، مو هكي قال يسوع؟

صمت مطبق، لا رد من سميرة. نظرت ناهدة مندهشة حائرة نحو خالتها، ثم بقوة هزتها من كتفيها وهي تقول:

- خالة سميرة إصحي هم غحتي بسابع خيالات، سميرة هاي شنو هم بديتي تعَلسين مثل شريط المسجل الخربان، ولك هم رجعتي تحلمين

مو بالمستقبل بس بالماضي، كنك سكغاني وشيغبتلكي بطل عرق، ولك إصحي إحنا بيا زمان، هسة الدني حرب وجثث وجيش شعبي بالكوة يجغجغ وطيحان حظ وأنت عيشي على قصص بيبي.

تعدلت سميرة في جلستها وانتصبت تفرك عينيها بقوة وهي تمسك بجبهتها وكأنها تمسدها، كمن صحى من نوم عميق، أخذت نفسًا طويلاً أحنت رأسها، خجلة مرتبكة ضائعة. قالت ناهدة:

– ها صحيتي من أحلام اليقظة ولك من شوقت قمتي تفكرين بالطبخ والنفخ، شنوعبالك الدني ما بيا غير الأكل والشغب، وتحكين مثل بيبي فهيمة، تتخيلين نفسك أيام زمان ولك يا لوبيا الشواطي أشو من سنين ما شفناها بس نسمع بيه من كنا زعاعيط، وما سمعنا بيه من ماتت بيبي فهيمة إلى اليوم، كل اللوبية إللي بالسوق مو من بغداد من بقية المحافظات لو مستوردة الله يعلم منين لو معلبة، بقى فلاح يفلح بها لزمانات زين، وينو الدهن الحر أشو كل شيء مصنع بشركة الزيوت النباتية ومعلب، والنيس توقف علينو سره بالمحلات ويتوزع علينا مكرمات من القائد الضرورة. ويا قعدات الكمرية أشو كلتنا نقعد بالهول جوة المبردة، أنت مثل البيبيمتو

تحكين بلا فهم بس تقليد لحكي بيبي فهيمة وكأنك عيشي بزمن العصملي، خيالاتكي شوقت غاح تنتهي، ولك مو أنت خريجة جامعة وموظفة ومثقفة، تلزمين كتيب وتهدين كتيب ومكتبة عمو بديع كن قريتيا كله، جوزي من ها الحكي الفارغ الفطير يا ريت عدكي أحلام يقظة حلوة ملياني مغامرات وحب وأمل، ونسه، وكيف، أحلامك فقدت صلاحيته الزمنية يعني عتيقة، فكري بالواقع بالمستقبل إللي ممكن يكون حلو مثل إللي بالكتب إللي تقريا، أعغف غاح تقولين يا مستقبل بهل الوضع والوقت؟ ميخالف المستقبل لو حتى مصخم ملطم هم أحسن من إللي فات لأنه إللي فات فات ومات مغاح وميرجع اصحي ولك.

ردت سميرة بعد أن هزت رأسها وكأنها قد صحت من غفوة فُرضت عليها قائلة بتحدٍّ ومجابهة:

- طبعًا أعغف بيا غير الأكل والشغب، أعغف أحلامي ما ممكن تتحقق بس إنت قيتلي نفسك على الغجال، ما مصدقة شوقت تتزوجين.

- طبعًا أغيد يكون لي عائلة وولاد وبنات وأغيد ويحد أشاركو الحياة الحلوة والمغة، أغيد أعيش مثل ما يعيش البشر، مو أتمسك بالخيال وبالماضي والعمغ قصيغ ما أغيد أضيعو.

نهضت فريدة صارخة بصوتٍ عالٍ:

- ولكم ما غاح تنجبون وتسكتون حكيكم صاغ ماصخ وما بينوا طعم، وبعد شوية غاح تغلطون وتخشون عميق بالحكي، أنجبو واسكتو، وكل واحدة منكم تغوح تلزمله شغلي تسوي. وأنت سميرة مو إنت زمالة الكبيغي وتفتهمين وأنت ولك إلك تبقين زعطوطة*، غوحي حضغي الكلاصات المذهبي والصينية الفضة والغطايات البرودري حتى نفغشا على الطبلات والميزات، يالله أشو امشو وخلو الميوه** ابلم كبيغ، يالله أشو اتحركو.

نظرت بغضب إلى ناهدة قائلة:

- ولك إنت احترمي خالتك هي أكبغ منك وياما شافت درد وقهر، غوحي اعتذري منها وبوسيّه وقليله العفو.

---

* فتاة تتصرف بغير نضوج أي تصرف طفولي.

** الفواكه.

سحبت سميرة جسدها النحيف بتثاقل تخشخش بأساور الذهب التي تغطي معصميها، حملت صحنًا به مشمش أخذت تنتقي، اختارت منها المخملية الملمس التي تكاد تذوب بلمسة من الأصابع، تفوح منها طيوب نضجها، قالت:

- شوفي فريدة ها السني المشمش ما يصيغ مثلو أحسن من كل سنة، شوفي شلون كباغ ولونم أصفر. أنا أتذكر إنت جبتي ناهدة وقت نزلت المشمش مو تمام، وخالة فاطمة أم منيرة سمت السني بسنة المشمش؟.

بإيماءة وضحكة أيدتها فريدة وقالت:

- بلكي الله يسهله علينا وتغوح البنت ويه نصيبه وقت نزلت المشمش همينه.كلو بالنصيب، ولو النصيب ينغادلو من ينصبو ويمكن على إيد أم جورجيت تجي القسمة وتتزوج، ناهدة تمام حلوي ومرتبي، بس شيلعه قلبي من طلاعاته وخشاته ويه صديقاته بهذا الوقت إللي يخوف، لو كن قابلت التفليزيون تتفرج على المسلسلات، تسولف ويه صديقاته وتتمضحك بالتلفون ويتبشبشون وساعات يقعدون بلطارمة وهذا ميصرف إلنا الوقت مو خوش وقت، أيامنا كله صواريخ وقتل وجيش شعبي

وإعدامات، أرزل بيه وأقله ولكم ادخلو اقعدو بالحديقة الوغانية وتطرفشني، وتنطيني اذن الطرشة تزرك بغه وتصيح من بعيد ماما أنا غيحة ويه صديقاتي وأعيط بيه ولك الزمي لكي كتيب واقري إدرسي حتى تنجحين بدرجة زيني وتدخلين الجامعة يصيغ عدكي مستقبل، لك الدني حرب وقتل ومقتول، لا تسمع ولا عبالك ولا يمه ومرات اتجاوبني وتكون برعة وتقول هذا يا مستقبل بهل بلد ماكو مستقبل لازم يحاصروك وينعلون أبو أبوك لو تصيغ مثلم، لو طبك مرض خلي الويحد يعيش حياتو وهاي هيه، أفكر وأقول هم حقه خليه تغوح بنصيبة وتتزوج بعد ما أفكر لا بالجامعة ولا بالوظيفة.

تذكرت سميرة يوم مولد ناهدة كانت سنة كثر فيها محصول المشمش وسمتها جارتهم خالة منيرة باسم سنة المشمش، كان ذاك اليوم كالأمس القريب، كانت قد عادت توًا من المدرسة، فوجدت خالة منيرة في البيت تطبخ وتعتني بوديع الصغير، وفريدة قد أخذها فتح الله إلى مستشفى الولادة.

عادت سميرة بذاكرتها لأول مرة تسلقت شجرة مشمش وقطفت أول مشمشة بمساعدة بديع في حديقة الدار الخلفية في بيت عمها يوسف والد بديع، تلقاها بديع وحملها وأجلسها ما بين كتفيه مشجعًا لها:

– لا تخافين أني أديغ بالي عليك، ما خليكي توقعين أبدًا، يالله أشوف قطعي مشمش.

قطفت واحدة وأعطتها له قائلة:

– شوف شقد كبيغي هاي المشمشاية خدا.

أمسك بديع بالمشمشة قائلاً لها:

– أنا ما غاح أكله.

استغربت من قوله وقالت له:

– لويش ما تاكله اتبين ليحقه وحلوي هاي المشمشاية.

ضحك وعيناه تتغامزان بخبث قائلاً:

– لأني غاح أنطيكي ياها أنت تاكليه، تعغفين ليش أنطيكي ياها؟ لأن أنت غاح تكونين مغتي من تكبغين.

– شنو يعني مغتك.

- ولك يعني نتزوج أنا وأنت.

- لويش نتزوج؟.

- ولك أنت بعدك زعطوطة* متفتهمين، كل ولاد العم يتزوجون من يكبغون، أنت بنت عمي وأنا ابن عمكي، يعني من أخلص دراستي وأصيغ شاب وأتوظف أنت تصيغين عغوص وأنا عغيص**، أنت تلبسين نفنوف أبيض ودواغ وتخلين حمغه وأنا ألبس قاط وبينباغ*** وأخلي وغدايه بصدغ ستريّ.

من يده المبسوطة بحنو، الممدوة إليها أخذت سميرة المشمشة التي طغى احمرارها على صفارها، ينضح منها سائل عسلي رقراق، شطرتها نصفين أعطته النصف المليء بالسائل العسلي وبتؤدة وأناة قضمت النصف الباقي.

كتمت سميرة ضحكتها ما أن شعرت بأن الضحكة ستستولى عليها حتى تكاد تخنقها، حدثت نفسها همسًا بصوت أقرب إلى الهمس"كم ضحكنا حينها". كنا نتصور أنفسنا في ملابس العرس،

---

* فتاة تتصرف بغير نضوج أي تصرف طفولي.
** عغوص وعغيص: العروس والعريس.
*** ربطة العنق الرجالية.

المدعوين، الكنيسة، الأقارب وكلمة نعم. نعم أقبل، نعم أقبل نعم أقبل، آه كم رسمت وطبعت هذه الحروف في مخيلتها على كل ركن من أركان غرفتها، ملابسها، كتبها كل شيء، في صبا يفاعتها ونضوج شبابها، كادت الحروف أن تنطق وتصرخ، كم خشيت أن يصل صداها أركان البيت ويسمعها الجميع.

أمسكت مشمشة، قلّبتها بين يديها، تحسستها، كلها نعومة وطراوة، مررت أصابعها بين فلقتها وصلت إلى السويق الصغير الذي كان يربط المشمشة بالشجرة لمسته تمعنت بلونه البني، ما زالت هناك ورقة خضراء متشبثة بالحياة معلقة ما بين المشمشة والسويق، مشمشة مثل تلك التي أعادها إليها بديع، ريانة طرية شهية كبيرة، تفوح منها رائحة مميزة عبقت، فاحت وطغت على أنفاسها، حتى شهيقها ضوع المشمشة احتواه، حاولت وقف أنفاسها لكي لا تعبق البيت رائحة المشمش المنبعث من نَفَسِها، أحنت رأسها، وصل عبير المشمشة إلى ثدييها، زفرت في داخل فتحة ثوبها لتبقي الضوع ملتصقًا بثدييها.

فتح الله غير متحمس لخطوبة ناهدة ولكنه يحترم قرار البنت، إنها ترفض الدراسة والوظيفة، تريد أن تكون زوجةً وأمًا... غريب أمر الدنيا، عندما تقدَّم مصارحًا فريدة بحبه ورغبته بالاقتران بها رفضت لأنها أردات أن تُكمل دراستها وتعمل، لِمَ تغيرت الدنيا، لِمَ ترفض ناهدة الدراسة ولِمَ أصرت فريدة على إكمال الدراسة، ماذا حدث بين زمن فريدة وناهدة؟، انهارت قيم واختفت مبادئ، تغير الفرد والمجتمع لماذا؟ لِمَ ضاقت السُبل بالجميع وأنسد نهر التحدي، انتشر فيضان الاتكالية، الخنوع وتغيرت المفاهيم؟.

قفل فتح الله بإحكام خزانة الحلي والملابس الثمينة، أنزل كبنك* الدكان، وضع الأقفال الثقيلة، أحكم إغلاقها، استدار ليذهب... ناداه أرزوقي قائلاً:

– عمو فتح الله خلص قفلت رايح للبيت.

أحنى رأسه فتح الله قائلاً:

– فيمانا لله** ابني

* الحاجز المعدني الذي يقفل ويفتح لحماية المحلات.

** في أمان الله.

سار بضع خطوات من شارع النهر مخترقًا فروع شارع الرشيد متوجهًا إلى الباب الشرقي للمطبعة، لكي يتفق على أسعار ونوعية بطاقات دعوة حفلة نيشان ناهدة، فيما إذا تمت الخطوبة.

قاطعًا طريقه عبر الفروع المعتمة الخالية الموحشة، متذكرًا عندما كان يقطع هذه الدرابين المليئة بالحياة، الآن مليئة بالقطط والكلاب السائبة الجائعة، تنبش بنهم وشراسة في القمامة، روائح نتنة معلقة في الهواء تهوي بثقلها وتخنق السابلة، ربما قد خنقت السكان وأمست البيوت خالية مهجورة، أبواب مؤصدة بسلاسل وأقفال صدئة، إطارات النوافذ تترنح ما بين الزجاج وجدار الطابوق المهترئ بفعل الرطوبة، العفونة غطت نصف الحائط العالي، الطابوق الأصفر الذي كان يشع بريقًا ذهبيًا يومًا ما الآن اصطبغ بفطريات خضراء، تهرت ذراته، يكاد يحس به ينوح ويتألم.

عاد إلى أيام مضت أنارتها أقمار عديدة وأفلت عنها شموس كثيرة، عندما كانت هنا كنيسة لها حوش واسع، وعلى الجانب الأيمن قريبًا من الحائط نخلة كبيرة، مزروع قرب ساقها الطويل الرشيق ورود وزهور متنوعة مع شتلة نعناع، وباب يؤدي إلى مقر الرهبان

وبضع مسطبات وأرضية من حجر الحلان الموصلي بألوانه الباهتة، قسم منها يميل إلى الاصفرار أو الوردي.

ذكرته ألوان تلك الحجارة المطواعة الصلبة ببيتهم في حلب، رغم أنه ترك حلب إلى بغداد وهو في العاشرة إلا أن مسامعه ما زالت تهدهدها نغمات تائهة تهرب من آلة عود من بيوت أزقتها مع صوت رخيم يردد القدود الحلبية، إلى الآن رائحة الصابون المعتقة تلاحقه أينما ذهب.

سرح في خياله أوصله إلى محلة باب توما الدمشقية التي لا تنوي مبارحته، ولكن أين دمشق اللعوب من حلب النغم والتناغم. استغرقته حلب وسرحت به إلى أبوابها الكثيرة ردَّد أسماءها بخبث طفولي وكأنه يمتحن نفسه بمراجعة مادة درسه، وما أن وصل إلى باب السعادة تفاءل خيرًا وتذكره لباب السعادة في حلب لابد سيجلب السعادة والفرح له ولعروسه.

الآن في هذا الشارع القديم أصبحت الكنائس خالية مهجورة، وساكنوه الجُدد قلبوا أرضه التي كانت مرشوشة بالماء إلى مزبلة، جيفة ومرتع للفئران والجرذان، بقع من النفط مع دهون المكائن،

الصراصير تتقافز، وشباك العناكب تغطي مساحات زوايا الجدران، اختفت الأبواب المشرعة على الطارمات النفهة الواسعة وروائح المأكولات الشهية التي تنبعث من المطابخ.

• • • •

سنة المشمش

يوم الضباب والغبار

رمى "وديع" القلم بعيدًا جدًا ضاربًا الجدار بقوة، أمسك بالسلاية كأنها تريد الهرب منه، أمسكها بقوة وإصرار وغمس نبلتها برفق بالحبر الأسود، راقب قطرات الحبر تنْزل بهدوء تنْزلق عبر شق السلاية الخلفي الضيق، راقبها هو يضغط بقوة والقطرات تسقط برقة ورشاقة على ورقة النشاف، ثم تفترش الورقة وتشكِّل دائرة تنبثق عنها خطوط كأنها أشعة الشمس، ترك القطرات تنساب عبر سطح السلاية، أمسك بها بقوة، أخذ يسطر كلماته بسرعة وكأنها تريد الهرب منه، أو ربما هو يريد اللحاق بها قبل أن تسيطر كلمات جديدة على أفكاره.

_ هذه السنة كثر الضباب مع الغبار، وكلاهما لا يجتمعان في شهر شباط مطلقًا.

فكر بعمق متحدثًا بصوت هامس عن نفسه مع نفسه.

لن يستطيع أحد تفسير ذلك إلا أنا، لو لم أنظر إلى جسد "زهوة" لما غرقت بغداد بالضباب، الغبار هو السبب نعم، هذا هو السبب، ألا يثير جسد زهوة الريان دجلة فيثور فيضانًا، ضباب غبار غطى على نافذة البيت.

استمر بالحديث الصامت مع نفسه عن نفسه، خاف وديع أن يفتح باب غرفته لأنه لن يجد طريقه إلى الخارج، أمسك بالسلاية مرة أخرى، أغرقها بقنينة الحبر الأسود، أمسكها بقوة مخافة أن تفلت، أخذ يكتب ويكتب ويغمسها مرة أخرى ويكتب بسرعة، نهض، فتح النافذة، وجد الضباب، الغبار يزحف نحوه، أغلق النافذة بقوة وعصبية، جلس ملتصقًا بمنضدة الكتابة يكتب ويكتب وما أن تمتلئ الصفحات حتى يرميها أرضًا ويستل ورقة تلو الأخرى.. ثم يقف صامتًا ساهيًا، يرفع إحدى ساقيه محافظًا بصعوبة على توازنه، يبدل الساق بالأخرى متجاهلاً المنضدة والأوراق المرمية أرضًا.
بقي واقفًا يحدث نفسه:

"لِمَ نظرتُ إلى جسد زهوة؟ لماذا أمعنت النظر بدوائر ماء دجلة التي أحاطتها وشكّلت هالة حول جسدها؟ لو لم أمعن النظر بجسد

زهوة لما غطى الضباب، الغبار بغداد ومنعني من فتح الباب والشباك".

"ها هي همومي التي أغص بها أغرقت بغداد بضبابها وغبارها، عكرت المكان والبلاد وربما الكون بكامله، هذا الصوت، إنه صوتي، لِمَ يحدثني صوتي ويتناقش مع أصواتي الأخرى، أصواتي الأخرى تدعوني بقوة للكتابة والاستمرار بالكتابة، وصوتي الآخر يطلب معاقبتي بالوقوف على قدم واحدة لأن ذلك سيقشع الضباب الغبار وينجلي، وتقوم زهوة من غفوتها من على سطح دجلة. سأكتب سأكتب ما تقولون كلكم".

"كياني منبع أسى، ومكر الحياة معي كأن الجن الذي يمتطيني يحاول دفعي إلى الوقوف عقابًا لأكفر عن نظراتي الشبقة إلى جسد زهوة الميتة، يصرخ بي أن أكتب وأكتب، سأكتب، سأكتب عنكم وما تفعلونه بي ومعي، أنتم هنا لستم أصواتًا فقط، أنا أراكم وأرى صوتي أيضًا، أراكم واحدًا واحدًا، كلكم تتكلمون معي بنفس الوقت، تفجرون رأسي، جميعكم تلعبون بي، سأكتب وأنطق والكون حلم، صحيح ليست لدي حسابات دقيقة أن تقدم الحياة

جميع الأصوات، تعطي صوتًا واحدًا، صوت جديد، ولا تخمين عقلي جاهز يسمع ثقافة وحياة اجتماعية، في الجدران أصوات قد تخوف من الطفولة، متونس خالق بعيرة، وأسمع مخلوق بصوت غير مفهوم، وأنه رجل يمر من تحت نافذتي".

الصوت الذي برأسي وبعد منتصف الليل يغني، الصوت سليمة مراد زكية جورج مائدة نزهت أنت فقط، أنت فقط هههههه أحمد الخليل صديقة الملاية أم صوت مائدة نزهت، يقرأ مقام أم يجود القرآن، نوري سعيد القندرة، أوروزدي باك، كورنيش الأعظمية، إنه صوت الأب بيتر في الكنيسة يقرأ، لا جفية لا حامض حلو كما قال بديع، قال قال بديع.

حكت سميرة راح نتزوج، أحبك رسائل بول إلى أهل أفسس، ولكنني أسمعه داخل غرفتي، وممكن قد تكون جميع الأصوات قالت ماما، وعندما قصوا لباسها ومهدي نائم، أدخل يده أولاً مثل حواء، ومثل آدم لا تقبل أن ينظر لغيرها، تعبر من ساحة حافظ القاضي وهذا عيب، إن الحكمة ألوذ بالحب، شرف البنت تلوث من غدر الناس، لم يقتلوها شرفًا، جريمة شرف، قتل قتل ولم يسافر،

ومن لا يعرف الحب غسل للعار، عار عار والضنى والتعب، كلها وقت الراجمات والقاصفات في تفسيرات الجلاليين والطبري ورسائل المار إفرام وأشعاره عندما حدث الزلزال، ومرتبط بالأرض جندي سائق شفل، والكل جسد واحد على الساتر الترابي.

الصوت هو طنين في الأرض والفضاء، هذه السجادة خريطة مثل شعرها، وهو إنذار بدخول الحياة، وقال نزل الكتاب لمنع الجن، يعني احترامنا زال، لكن المجلات الراقية مكدسة، وجريدة الأهالي كلها لبديع، كل شيء هو صوت عليها اتخبر عن من قص حمالات صدرها بالمقص، ماما قالت رأها يسافر أم بقى يعرف اسألوا الشرطة، وماذا تريد هه هه هه، وطن حر وشعب سعيد، المغضوب عليهم والضالين اويلاخ إحنا مشينا مشينا.

ولا يهمه ابن قيمية الجوزي والبخاري ولا الخيام فقط عمر ابن ربيعة، قال الصوت للحرب عاشك ويداف عن محبوبته، وهل يخفى القمر هههههه، اخرج وخرج، وقال اكتب الأصوات، هي تكتب وتكتب، خيالات بديع وطن حر، يزرع يأكل، وشعب

سعيد، اعدم اعدم، صرخوا كلهم جيش وشعب يحمي كخطوط كفّي زهوة.

التنصت علي في البيت، إنه اتصال، الأصوات معكم، لماذا ملابس جسم يقاسم نذل سواها جميل، جاء المحامي، هي حواء والكافر منهم يردد هذا في المجلة، أنت سبيت الملك ابن الزفرة، لم يسب فتح الله المدعي العام له، فصلوا والدي مرة ثانية من الوظيفة الحق العام، ويقول كيف تسب الله، الله أم الملك أم الرئيس، من شعب الكافرون، شعب هو الكافر، أم الشيوعي فتح الله المسجون من هو وهو صاغرون.

كان المشمش كله بعث في نقرة السلمان قد استوى خيالات هز أمريكا، خالة سميرة أبو مهدي وزهوة ماكو مؤامرة تصير ولم يأكله، أعطته لبديع، ضحكت عليها قصة خالة سميرة، تعشق أوروزدي باك والحبال موجودة، لمن الصوت يقول لم أعطه ولكن الجادرجي هو من قال: "بديع باب الحرية يدق بكل يد يردد اسمه"، من هو، إنه ليس صوت هو مع المحامي مسودن مسودن لا

تبادل إنها المسيحية، وقلت الشهادة في الكاظمية خرجت وعبرنا الشارع ويا حوم اتبع لو جرينا.

مات يقصد ماركس وأنجلز وموزارت وهو في نهاية الثلاثين، سأكتب، أكتب مثلما تقولون، الشمس واقفة وفهد إعدم وهو هناك لم يسافر، بقى هناك، الأرض مسطحة، قال الخالصي، قال في الحسينية هل ترضى أن يكون والدك سمكة، عاش الزعيم، ولكن في شارع السموأل عبد الكريمي زعزعة العالم أنه هدام، أو البنك العثماني الرافدين، أم الصرافين إللي زيد العانة فلس أين ذهبوا ملفات حسابات وأفكار هدامة، لا نشعر بالهواء والشمس، لحوم وأجساد للقائد الضرورة النخيل تم إعدامهم اسحلوهم اقتلوهم.

في سنة الفيضان تسلم نفسها، العقل يترجم السمفونية التاسعة وهو يكتب مفاخذة الرضيعة، ورسالة بولص إلى تمويثاوس في شارع المتنبي، خرج وذهب، لم يسافر الخميني مع مفاتيح الجنة، وهي تطوف على الماء مثل أغنية محمد عبد الوهاب، العالم جسد واحد فيه نجوم ومجرات، جئنا بقطار أمريكي، قال عنهم بديع وذلك هناك يؤشر لي أنه صوت وليس أنا، يكتب بصوته

تفسيرات، وذهب إلى بيت مريم القشلة وصكوك الغفران للأغنياء، قرب الحاكم المغضوب عليهم والضالين هههههه، يعني إحنا أم يوحنا الملقب بمرقس، أنت فقط يا بولص قائد المئة على الكورنيش، يا كاع اترابج كافوري كافوري، بعد أن كلمه الملاك كما في درس التناول الأول، والجيش الشعبي أنت من صنعت الكنيسة وخربت هههههه.

مجتمعات ترمي العقل، صوتها تغريد في شارع العطار الكرادة، بيت مرجان المقاومة الشعبية، وسحلو الجميع حيث سكن بديع هناك اختفى، تتعطل الحياة في المربعة قرب السنك معمل السكايربسكنه، الجدعان وهي تضحك، والعقل من مصر لا يترجم، بديع قال: "أنا ترجمت حياة بتهوفن، وقبله موزارت الطبيب جاء وأخذني، ولكني رجعت، وأصبح هو في حياتكم وأصواتكم كل شيء مشفر، وأسرار لافتات سوداء، انتقل بحادث مؤسف ههههه كريم الأعور وزير الداخلية".

عمو هادي قال أخذت حياة جديدة قرب البنك المركزي، كانت ملتصقة بالطفل، لم تعرف أن يد تدخل تقص ثم تقص، كان علي

أغرقها أم تلك النساء فقط من عراة لا دجلة، إنه عرف لأن الشمس لم تكن ساطعة، ولكن كل البيوت غرقت بماء دجلة الغبار الضباب، وهي تصرخ وتبكي، القادسية القادسية، والناس قامت كلها تشتري الأهالي، لا لا لا وجريدة الثورة، وعدي هههههه رئيس التحرير في فندق سميراميس، أين هو المريديان، اغرقي فيّ أنا وفريدة تطبخ لأن الأكل فقط لا الماء، ولا بيرة فريدة، ولا ديانا هههههههه، جوهرة جوهرة، ولا فندق بغداد يحيى فيها الإنسان، ولا السماء من يرى الأجساد مثل خريطة روح القدس، وساحة النصر وفندق الشيراتون هناك اجتمعوا، واللقالق هربت طارت خافت.

سأكتب سأكتب، سرقها دجلة، لا تصرخوا لا تصرخوا، سأكتب سأكتب، صوتي يصرخ بي معكم أنه ضدي مع الشرطي السري، وياكاع اترابج هههههه كافوري ككافوري كف عفريت عفريت.

إن الكتاب أنزل لمنع الجن من التنصت، وهناك شرطي سري واقف تحت الشباك، الطب يفهم من دراسات سابقة لفرويد في

الصباح، لم يحكِ، بقيت هي طفلة لا تعرف، هذه هي الحياة، الاتصال والتواصل والتكافؤ والجنس، عشتار والجن، يقف فوق كنيسة اللاتين وروح القدس، ويضحك بديع مع الرهبان، واللقالق اختفت اختفت...

القدس كانت في السطح نائمة، ولكنها ماتت أو سافرت، وحقائق سركون موثقة ومنهج، ودارت حول الكعبة مثلهم، كلهم عراة، عراة تمامًا، وهذا القانون مطبق، وشرف الجميع مصان مع كلكامش بماء دجلة، ربما الفرات في أنطاكية، تسمى التلاميذ مسيحيين، مسحوا وجوههم بعد الصلاة، والشرطي يراقب ويسجل بقلم القوبية لحيته تمن وماش أنه في المزار يشد الخرق الخضراء وخبز العباس، وقامت في الصباح الأصوات تتعارك، وصداع، ثم تقول لم أعرف، وسافر لأنه لا يعرف الحب، بل أنكيدو فقط، الظلم النازية هتلر، هتلر قتل الرجل بشعر التمن، والماش افتّح عيون الأعمى، سومر وبابل تتعارك وتصرخ لا أفهم.

الموظف يكتب أنا لا أهذي، العالم الكل وأنا أكتب والشرطي يكتب، حسابات التوفير عند بديع وشركة سنجر في الباب

الشرقي، سحرية سماوية محلها مغلق، الكل يهذي من شمع الكافور الأصفر، صّفه العباس أبو رأس الحار بالكاظم، البيان الأول قال أبو مهدي مكتوب على زاوية في الباب الشرقي، ومنشورات السلم في كردستان طريق الأعظمية والسيطرات، باب المعظم المشمش شلون كبيغي، سميرة المكبوت، سميرة اللاوعي، هههههه زهوة نائمة نائمة، المخبر السري شعره تمن وماش فلفل وملح، من هو في فلك قاسي نسيت اسمه، لَمْ حاكموه، الباب مغلق، الغبار بالضباب، الغبار جاء الطبيب في نص ديني جامد، التوكيد معدوم، إلهي رباني سماوي قدسي عواسج يابسة.

وشيخ الشط قال فعل شنيع الشهادة أبوها مزقها، الفعل الشنيع أنا فعلي شنيع، تلبس حذاء مفتوح كله شهوة، أمواج دجلة مليئة بالموت، اجلسوا اجلسوا، اكتبوا اكتبوا، عصفوري من كفي طار، أريد لحم ضلوع ورقبة لطبخ البامية، كلهم عراة، احترقوا وتركوا سميرة، زهوة تطوف بهدوء، غنت شادية قولوا لعين الشمس، ومنعطفات جسدها تكبر وتكبر، وكنيسة السريان بالعربي،

والكلدان يقولون قادشيا الاها، هههههه جدي قال هواء الجرداغ شمس سيناء.

مليان رائحة السمك وووووالان أقول عطر زهوة محرم لا محروم، أمها لم تعرف، أبوها رفض ورفض، قلتها كلها أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

جاء الطبيب ومعه المضمد، الأصوات تصرخ، اكتب اكتب، سوق الشورجة به شمعات شمعات، شموع شموع كبيرات صفراوات، ألبسوها حلقة ذهب وسوار ألماس، فريدة وافقتي، يطوف الجنود بماء الفاو ودمعة نزلت شارع الرشيد كله أغرقته، جثث جثث في كل مكان.

الطب العدلي شارع أبو نؤاس مقفول تمامًا، شباك صغير وأدوات وأسلاك مربوطة بجسمي، صرخ حجي هادي بوجهها، وبصق بوجهي أبو مهدي، ليش عمو، عمو ليش دائمًا تقول سميرة المشمش طعمه لذيذ، لم أذق مشمش من أيام أيام الوحدة والحرية، ولكن أين الاشتراكية مدفونة بعيدًا، هو سحقته دبابة وسقط، وأنا مربوط بأسلاك الكهرباء، الجسر المعلق ما زال موجودًا أم نزل

النهر واختفى مع من عليه، اعطته زهوة ورقة عقد النكاح وشهادة، وبصق في وجهي، جاءت فريدة ماما تولول، وجاء من الموصل سميرة تقول بقه زي بقه زي سمعتها سمعتها.

يلبسون الخاكي يحملون قوائم، يطرقون الأبواب، هههه ذهب حُلي وأسوار ذهب تتبرع، صواريخ تسقط أطفال للمحمرة أخذوا غرقوا بالكلاشنكوف، نعم به، قال بديع رضعت من ضرع نعجة، مرَّ كاكا وكاكا، انزاحت كلها مدرعات دبابات دينية قطيع تقزمت ماتت.

• • • •

سنة المشمش

يوم الوجع

البيت يشعُّ بهجة، فرح وترقب، البنات بكامل زينتهن، المائدة تعلوها باقة زهور، "فريدة" متوترة وقلقة تنتظر وصول فتح الله، نظراتها تسافر بسرعة ما بين الباب وغرفة الاستقبال المستعدة للحدث المهم، منيرة تهدئ قلقها بابتسامة مشجعة، تدير رأسها محاولة تلقي أي صوت قد يشير إلى وصول فتح الله وهادي، أو أي حركة تستدعي الاهتمام في البيت.

سميرة وناهدة بقيتا بالقرب من فريدة بسكون وهدوء، محاولات أن يرسمن ملامح جادة على وجوههن، وإخفاء اللهفة والشوق لما سيحدث.كل واحدة تعرف مكانها ودورها، السكوت وخفض الرأس دائمًا وعدم الابتسام إلا عند وصول الزوار فقط، لا استهلال الحديث بل المشاركة في الحديث فقط والإجابة المقتضبة الحكيمة والواضحة عند أي سؤال، وترك الإجابة المحرجة إلى فريدة.

كُلا منهن تعرف دورها وتوقيت كل حركة، من ستقدم المرطبات والحلويات والقهوة، وكيف ستوزع الأطباق، كل حركة محسوبة ومدروسة ومقررة، وكأن البيت كله قد قام ببروفة لمسرحية مُعدَّة مسبقًا تم كتابتها وتأليفها وتمثيلها من قِبل كل فرد، بعد أن أقرت فريدة تفاصيلها.

حفظت الأدوار وتم مراجعتها مرات ومرات، أرادت فريدة أن تُظهر للزوار أن بيتها في غاية الكمال، لا تعتريه شائبة، ولا يمكن أن يكون أقل من مستوى طموح أي عائلة محترمة.

وصلت أم جورجيت، معها الشاب الخطيب مع الخاطبات والخطاب، من أم الشاب إلى خالاته وعماته ووالده والأعمام والأخوال لبيت فريدة.

وقف فتح الله وفريدة وهادي ومنيرة باستقبالهم، وصافحوا النساء جميعهن، وأكدوا لهن تشرفهم بمعرفتهن، ثم صافحوا الرجال وتبادلوا معهم كلمات المجاملة والترحيب. قدمت فريدة منيرة للجميع كأخت قبل أن تكون جارة، وفعل كذلك فتح الله، إذ قدَّم هادي كأخ قبل أن يكون شريك عمل وجار العمر.

سار كل شيء حسب الترتيبات المُعدَّة سلفًا، الأحاديث شملت الكثير من المجاملات والاستفسارات وتعريف وتقديم أنفسهم، والتفاصيل عن العريس؛ من عنوان الوظيفة إلى محل السكن إلى أدق ما تتطلبه الحياة اليومية، وكان هو السباق إلى الإجابة، وقالت أم جورجيت:

- أي بقة ما أنتم استفسرتم وسألتم على بيت ميخائيل وهسع العغيص جاوبكم وتأكدتم من الحكي، بقة كوي نغيد نسمع كلمة شيفين الخير وهلهل.

أحنى فتح الله رأسه بعد أن رمقته فريدة بنظرة مستفسرة، وبهدوء وصوت منخفض متطلعًا إلى ابنته قال:

- القول للبنت هيه أم القرار وبعدا أنشوفكم الخير.

أحنت ناهدة رأسها ثم رفعته بدون أن تُخفي ابتسامة فرح ورضا، حينها بصوت خفيض هامس قال فتح الله:

- شيفين الخير...

وعلا صوت الهلاهل.

دمعة تائهة هربت من مقلة سميرة لتستقر بين نهديها، ثم تبعتها أخريات، بقيت سميرة ممسكة بالمنديل بقوة تمنعه من أن يتلقى الدمعات، إذ تركتها تنساب بنعومة على وجهها، تنزلق إلى ما بين ثدييها بكل دفئها وسيولتها كماء الحياة، تستقر لتبرد وتتحول إلى مجرد قطرات ماء باردة.

نهضت أم جورجيت واقتربت من أم الخطيب وتسلمت منها علبة مصاغات كبيرة الحجم مغلفة بالقطيفة الحمراء، عليها اسم محل الصياغة مكتوب بحروف مذهبة، قائلة:

- بقة كلكم شوفونا الخير وخلونا نتمنى للعغوص والعغيص حياة حلوي وينسعدون ويحد باللاخ.

ارتفعت الهلاهل الثانية بعد أن ترددت كلمات ودعوات تقليدية مصلاوية قبل الهلاهل (اوييها وصاد لاصي)، ثم ألبسوا ناهدة المصاغات، قالت أم الخطيب:

- هاي كوي ما مال النيشان هاي كوي بس علامة الخطبة وموافقتكم، بقه زي أشوقت ما تغيدون كوي أنغوح لسوق الذهب ونشتغي النشيان والحلقات أبذوقكم وإللي تغيدوا ناهدة

بجراله... لكن بقه زي أشون عي ده أقلكم إللي تغيدونه كوي يصيغ بقة أشون.

انصرف الزوار من الدار، منيرة وفريدة جلستا تتبحثان في التفاصيل الدقيقة التي يجب أن تتم، حديث ممل لم يرق لسميرة أو ناهدة. فتح الله وهادي رافقا محسن الممرض من غرفة وديع إلى سيارته، شكراه على جهده لإبقاء وديع هادئًا طوال وجود الزوار. قال محسن:

- وديع يتقبل العلاج، وقمت بما أوصى به الطبيب حقنته بالدواء، نفذت له رغبته بعدم الاعتراض على الكتابة، بعد أن غفى جمعت الأوراق المرمية أرضًا ووضعتها في الجارور خارج غرفته، ووضعت كومة أخرى على المنضدة.

تنهد فتح الله بعمق، هز رأسه بألم، قال هادي:

- إن وديع حسبما يقول محسن مريض يتقبل العلاج، ربما يعود إلى ما كان عليه يومًا ما، فتح الله خلينا نروح للبيروتي أبي أشو متضايق.

هز فتح الله رأسه موافقًا ونادى فريدة:

- أنا وهادي غيحين للبيروتي، لا يظل بالكم لو نتأخر.

جاءه صوت فريدة:

- أشو إلى تلفات الله ميت جايخانة هوني، شي وديكم للبيروتي لويش ويه هذا الوضع صواريخ وعزا وازدحام والنيس تتراكض.

نادى قائلاً:

- قليله لمنيرة إحنا غيحين.

وصلا البيروتي، بمواجهة دجلة، اختارا مقعدين متجاورين غير متقابلين، أمامهما منضدة خشبية صغيرة ما زالت بقايا بقع الشاي تملأ المنضدة، وعدة استكانات* شبه فارغة إلا من بقايا قليلة من شاي محمر اللون غامق تُرك بإهمال.

- أخو الخطيب بعثي جبير، قال فتح الله.

رد هادي:

- ناهدة شتكول؟

- تكول الكل لوكية الناس كلها صارت بعثية ما عداكم أنت وعمو هادي، بس أنت وعمو هادي موبعثية ما أعرف غيركم.

- سمعت أخو العريس جبير بالتصنيع العسكري.

---

* أقداح زجاجية صغيرة لشرب الشاي.

- مهندس صوارخ وبعثي.

- هو إللي دبرها لأخو ما يروح للجبهة.

- وقابلة ناهدة بيه.

- أي أخر زمان.

- مع الأسف.

صمت ووجوم أليم غمر المكان، حتى وصلت أمواج دجلة التي أخذت تبطئ بهدوء متثاقلة، ترتطم بالمسناية وتهرب بعيدًا.

- تعرف فتوحي أني ما أكدر أسامح نفسي أبدًا، أنا السبب وديع وصل بي الحال إلى هذه الدرجة.

رد فتح الله:

- قسمته شن سوي.

- فتوحي كمت تحجي لي بالقسمة.

- شسوي شكول.

- كول الحقيقة، كلي هادي أنت السبب.

- لا مو أنت، السبب المجتمع خربان.

- الرجعية مستحكمة بالعقول.

- عبالنا أنثقفهم.

- شي وصار.

- ماجان لازم أطرده، جان لازم أكعد وأناقشه، مخش أبعقلي إللي سواه، رزلته وطردته لأني ما ردت ألوم نفسي وأعتبر أني وأنت خسرانين، حسيت أني وأنت فشلنا تمامًا، كل العلمناهم ما دخل بعقلهم، بقوا عبيد للمجتمع الفاسد المنافق.

- على الأقل هو طيب وكاعد بيناتنا، ويلي على نبعة الريحان إللي طافت على دجلة، كل خشتها علينا جانت ترد الروح، وتخلي حتى العصافير تضحك ويه الهواء، حتى البلابل ما تغرد هسة.

صمت مطبق موحش ثقيل لفهما، ساد المكان، بقيا واجمين كلٌّ سارح في عوالم احتوته لسنين، وحوادث لم يحسبا لها أي حساب.

جاءهم صوت متساءل من نادل المقهى:

- جاي حامض كهوة؟

ردا سويًا:

- كهوة مرة.

وبالقرب منهما على سور المقهى حطت يمامة تواجه دجلة، بقيت ساكنة وادعة على السياج الخشبي المهترئ. أحدهما يحادث أمواج دجلة شبه الراكدة، والآخر تخترق نظراته الأفق المحمر وتجادله، يستمر الحديث، المجادلة، بصمت عميق موحش ساكن مخرس، كان البكم يكاد أن يشفي الجروح العميقة الغائرة في نفس وأرواح كليهما، يحادثان الحياة ويجادلانها بسكوهما.

- مجان لازم زهوة تنهزم وتركض.
- ولويش وديع ما منعها لو وكفها.
- جان لازم ألزمها واقفل الباب عليها.
- ليش هو اتبسمر ابمكانه.
- صرت هواية عصبي وأخذت منه حجة الإسلام وملختها وصله وصله.
- لو هي كايلتلي، لو مفاتحينا بالموضع، جان أبي هزمتهم اثنينهم لبرة إلى أي مكان والله وياهم، غرامهم وحبهم جان صار طرب وفرح طرب وفرح إلنا.
- وكدام العالم نتبرئ منهم.

- وبالصنطة تجينا رسائلهم.

- وصور تخرجهم.

- عرسهم.

- وأطفالهم.

جلسا يمضغان وجع الموت والجنون، تفاهما صمتًا، تناقشا سكوتًا، ودجلة يسير بهدوء مفتعل ليصبح ثالثهما، ربما دجلة يبدي ألمه لقسوة أمواجه على جسد نحيف مرهف وروح شفافة، استمر كلامهما الصامت الأبكم.

- كنت افسح لهم مجال.

- للعبور للضفة الأخرى.

- ليبنيا عشا.

- قشة فقشة.

- موجوع أنا يا هادي.

- كأنني القتيل.

- متى تتعرى شروط القتل العمد.

- متى يلغى سلاح الدين.

- سيل من القهر يسحبني.
- إلى تلك الأمواج الميتة.
- تصورنا ستترمم النفوس.
- أين هو القادم الأجمل؟!
- الذي انتظرناه!
- أضغاث أحلام.
- أحلام فسدت.
- توقعنا أن نقطف.
- ولو نتف.
- من السعادة.
- حصدنا العمر.
- شوكا.
- متى سنعتق ونعتق المرأة.
- من الدين.
- من المجتمع الغاصب.
- من الفحولة القاسية.

- التي تتلذذ بإضعافها.
- لم تتغير نهاراتنا.
- ولا أماسينا.
- آه من الليالي.
- دهماء.
- بقينا مكممين.
- مسلوبي الإرادة.
- نحتضن الموت.
- والجنون.
- سحرها تركته خلفها.
- ما زال يغمره.
- نسمع أصواتًا.
- حتى البلابل لا تغرد.
- هاجرت.
- رعبًا.
- أين هو زمننا؟

- خارج وجودنا.
- سال أم نشف.
- كلا اندلق.
- لا نبتسم.
- إلا من غبائنا.
- حماقاتنا.
- نحن بقايا.
- نثار أصنام.
- دجلة راكد.
- تواسيه نخلة.
- إنه العراق.
- بل إنه العراقيل.
- لم يعد لنا فسحة.
- لنراوغ الحياة.
- نهرب من الوقت.
- وقتنا جف.

- من عطف الحياة.

- توزعنا بين الاختفاء.

- والموت.

- أين رؤانا؟!

- تقزمت.

- زرعنا الريح.

- حصدنا الألم.

- الوقت يمتد بنا.

- نحو اللاشيء.

- نحو النهاية.

تصاعد بقوة وعنف رنين صافرة الإنذار، بقيا بدون حس أو حركة، اختفت اليمامة، انطفأ المصباح الكهربائي، سكت المذياع، جاء صوت النادل:

- عمي دخلوا جوه.

تجاهلاه، اصطبغ الأفق بالأحمر والأسود، صمت ثقيل خانق. دجلة ما زال في ركوده والنخلة تواسيه.

علت صافرات سيارات الإسعاف مع صوت المذياع، صوت صارخ هادر مهدد ينافس صهيل الخيول الفزعة في المعارك الطاحنة، سقط صاروخ أرض أرض على حي سكني، دمر خمسة منازل وسبعة أطفال وأربع نساء، مع كثير من السابلة في الشارع، مع ثلاث سيارات لنقل الركاب.

استدارا أحدهما نحو الآخر بحسرة متشنجة، وانكسار عميق، قالا:

- لويش ها القتل؟.

• • • •

سنوات التيه والضياع

يوم النعجة

أمسكت فريدة بأوراق مهلهلة مبعثرة تكسوها بُقع بُنية غامقة، وآثار قطرات قد تكون زخات مطر تاهت فسقطت على ورقة كانت ناصعة يومًا ما، أو ربما قطرة عرق مالحة من جبين متعب، أو رشرشات بول استهدفت نصًا آخر، إلا أنها زاغت عن اليد المرتعشة التي تمسك ذاك القضيب الذي يطلق البول، إنه عضو منهك، جائع للحياة، للإخضرار، للتواصل والوصل، قد تكون قطرات ماء زلال تبعثرت وزاغت عن فمٍّ جفَّ عطشًا، صمتًا، مليء بتراب نفثات المدافع، ورماد الأشجار مع نقاشات عقيمة ولوعات علاها الصدأ تصارع التهميش والموت والنسيان، فم صبا إلى فم آخر يرتشفه ونسي كيف يتلقف تلك القطرات بروية، فم تلقى الزلال بنهم وشوق أقرب إلى الشبق منه إلى العطش.

أنفاسها تتلاحق كأنها تقتحم الهواء، وبكفين احتواهما الخوف والرهبة مع هواجس وجع الناس، الوطن والبدن، وهن جسمها

المتلقف أبدًا لأحداث فاقت قابليته، خطواتها رسمت حياتها المفعمة بالألم جعلتها ترتطم بكل ما يواجهها. خواء جسدها لم يقوَ على احتواء روح وثَّابة حوَّلته إلى خيال؛ ظلٍّ لجسمٍ شاحبٍ مهدود يتوق إلى استراحة أبدية.

جلست بتخاذل على حافة أقرب كرسي غير مبالية بالراحة والاسترخاء، أصابعها مشدودة لا تقبل أن تطاوعها، مآقيها متيبسة، مرَّت بنظراتها المغمسة بالدموع، قرأت:

"في أحضان الطبيعة المحروقة، ومن بين دخان السجائر المحفزة للسهر أجلس لأحكي لمن حولي، وأكرِّر ما أقول، فإن الأحاديث في السياسة، الحزب، الحرب، استهلكت، تمرت، فقدت بريقها، أحكي لهم طرائف أبي، وخبث أخوالي وأعمامي، والدسائس العائلية مع الحنان السخي والكرم المتناهي لهم كلهم، أتصورك جالسة معنا تحتضنين سلاحك وتشهقين بضحكاتك القصيرة المتقطعة، أضحك لضحكاتك المتخيلة، أنت في خيالي، تبعدين عني بُعد أناملي عن كفي... هنا ندفع ثمن فواتير المحن والألم والرزايا، لعقود إذعان وقَّعها أجدادنا وآباؤنا ونحن كذلك مع الوطن، عقود

سلبتنا من حياتنا، عقود إذعان جعلوا عنوانها الأمل خداعًا لنا، إلا أنها عقود الخيبة، إننا خارج الزمن، هل ستتقلص رغباتنا، تطلعاتنا، مثلما تفعل المياه بالحجر؟".

"أرى المدن تتكسر مثل فُتات الخبز وتتحول إلى ضيعات وتجمعات سكنية خاوية، إلا من رأس غنم، وصبي راعي، دماؤنا يملؤها العويل، حتى الخوف يرتعد من أجوائنا، قمصاني التي كويتِها لي ما زالت مطرزة بحرارة الحنين إليك، لم يمسها ماء، بل بللتها قطرات عرق نز من جسمي رغمًا عني".

"أتوق هنا لشمة من باقة من البابونج أو البقدونس، ورائحة الشلغم في الشتاء، ولكنهم يقدمون لنا القتال على شكل حلوى للرجال الشجعان، ليموتوا رضا وقناعة، في بحر من الألم والشجاعة والخذلان، سلاحي يرقد بجانبي، يخجل مني، هو يتطلع للموت، وأنا أتوق للحب، اضمحلت الشهوة ويبست الأماني، قد أعود إليك وشظية اخترقت قلبي الممزق أصلاً".

"نقاشات نقاشات تحتدم، تستعر، تصل إلى التسقيط والتخوين، لا أقدر على سماعها، كتب تصلنا، أغرق بها وأنفر من الكثير منها،

بدأت بوادر مشكوكة تطفو، المسافة تتسع بين القول والعمل، وأتطلع إلى أفق محبة بعيد قد تورق أشجاره لولادة وطن جميل، بعد خراب عنيف. بشتاشان أخذت معها الكثير مثل مذبحة سميل ومذابح الحرب العالمية الأولى، وقطار الموت الذاهب إلى السماوة ثم نقرة السلمان، والسحل في الشوارع، وتقاتل الأخوة الأعداء، وتوقيع عهود ومواثيق تطعن بنا كبشر على أرض سواد واحدة، إلا أن كثافة الموت اليومي في سوران ومقر روستي وجبل كارا وكلي كافيا، وقرارات العفو الكاذبة تغطي أفقنا، ونتعثر بجثث، أقدام أصحابها تسيل دمًا لسيرهم شبه حفاة بين صخور جبال شاهقة، جثث لن يكون لها قبورًا أو شواهد رؤوس".

"طاولات السياسة مليئة بالمقاعد، يتحرك كل جالس وفقًا لهواه، سيعلوهم الصدأ يومًا ما وتبقى الكراسي مليئة بهم، يتساءلون ويتقاتلون بالكلمات والسيوف، وتتحول كلماتهم إلى نبال عمياء تخترق قلوب من يجلس في الجهة المعاكسة، نوازع قومية ضيقة وأوهام سحرية، وعبادات لأرباب خلقناهم نحن، امتلأت بهذيان وخيالات أسطورية، عوضًا عن المحبة والخير تكرس الغضب، الرفض، الكره والذبح".

"إيقاعي اليومي تبدَّل كليًا، بل ضاع مني، كم أحاول أن أسترده عبثًا، وكم أحاول التأقلم على الإيقاع الجديد عبثًا، رغم حياتنا المتسارعة قبل وبعد إلا إنني أجد أنني أريد خوض صراعات تبدو دفاعًا عن الحقوق، في حين أنها إضاعة الوقت والروح، هل أريد أن أخسر الصراع وأربح وقتي وروحي؟".

"كنا سويًا يا سميرة، مشروع شراكة دائمة لم تتحقق، فُرض علينا القمع، وأُغلقت بوابات الحب بأقفال لا مفاتيح لها، هل سيأتي يوم نفتحها ونشرع كل الأبواب للقادمين الجدد؟... الكتب مرمية هنا وهناك ممزقة، منْزوعة الصفحات، تحرق لغلي ماء، يصب لنا به أوراق الشاي المتعفنة اليابسة".

بقيت فريدة ملتصقة بالأوراق الذابلة، وحيدة تجلس على حافة الكرسي، البيت يبدو فارغًا خاويًا، لم تعد تُسمع فيه أصوات ساكنيه، لقد صمتوا إذ لفتهم الأيام بطيات الألم، الموت أو الإحباط، كل منهم منْزوٍ في مكان، يعلو صوت التلفزيون المسيطر على البيت شبه المهجور لقلة من بقى من أهله وساكنيه، صوت التلفزيون خشن ناعق يذيع البيانات، يصف بإسهاب الأموات، ويعددهم مع مشاهد من صور من المعركة.

تشعر فريدة بدوار وضيق النفس، تجر الحسرات محاولة إبعاد الألم ونزعه عن صدرها، تخبئ الرسائل في جيب فستانها، تحاول الوقوف؛ لا تستطيع، تميل في حركة لا إرادية وتسقط مع الكرسي، بصعوبة تتعلق بساق الكرسي محاولة الوقوف، تسمع الصوت سميرة، تهرع، تجد فريدة جالسة على الأرض مستندة على ساق الكرسي، تحاول مساعدتها على الوقوف لكن فريدة ترفض، تتمسك بأختها لتجلس معها على الأرض، تحتضنها تقبلها، وبيدٍ مرتجفة نحيلة بانت عروقها بألوانها الزرقاء المخضرة تقدم لها كومة الأوراق الذابلة الصفراء، قائلة بصوت بالكاد يسمع:

- هاي من بديع هسة جابه، فد ويحد ما أعغف منو طعاني ياها، وحتى ما جاوبني من سألتونو، هاي إلكي، قريتو شوية منه ما قدرتو ألزم نفسي وأنا أشوف خط بديع وما أقرانو سامحيني حبيبتي، هاي المكيتيب كله إلكي.

بيدٍ راعشة وجسم مهزوز مضطرب تجلس سميرة على الأرض الباردة لتقلّب الأوراق، تقرأ بصمت، مساحات من الصمت، الدهشة، الترقب والخوف احتوتها مع فريدة، أنفاسها تتلاحق، تريد أن تشق الهواء، تخترقه لتصل إلى الكلمات... بقيتا جالستين

على الأرض العارية، قرَّبت سميرة الأوراق من فريدة داعية إياها لمشاركتها القراءة سويًا... أحنت فريدة رأسها وأسندته على كتف وصدر سميرة ثم تابعت القراءة، تستل سميرة ورقة بعد أخرى تلتهم حروفها، تدعها تستلقي على جيدها وصدرها، وفريدة تضع رأسها عليها لتحافظ على الأوراق.

"ما زلتُ أشعر أن رضابك في فمي عندما كنتِ تنطقين اسمي، هل سنبقى أنتِ وأنا مشروع حُبٍّ مؤجل أم قيد الإنجاز؟ الأشجار، الزهور، العشب الطري كلها أُعدمت، اُغتيلت وُئدت، تحول الأخضر إلى الرمادي، هل سنتحول كلنا إلى برنامج لن ينتج بل يرى ضمن مجموعة صور، اسمه صور من الذاكرة، أم ستمحى الذاكرة ونبقى ضمن العدم هنا كما الطبيعة المغتالة".

"لنلبس أوراق الشجر، ونأكل ما تنتجه الأرض ونستلقي، سئمت المجادلة والمنكافة، كل شيء تصحر، يبس، ابقي أنتِ كما أنتِ، نبتة حانية تسترجي الحب والعشق وقدوم الحبيب في خيالها الخصب، توقعاتك تصلني، تقويني، تدفعني. اكتبي خيالاتك الغريبة، لا تتوقفي، فخيالك شهيٌّ وغريبٌ ويطرب لأنه أبعد ما يكون عن

الواقع، هل واقعنا يستحق التسجيل؟ قد أعود يومًا وأجدك أنتِ وإياها، لأتمتع بكما سويًا، أنتِ وخيالاتك الحبيبة".

"أحلم؛ وقد يتحقق لي؛ أن نختلي في مكان أو جزيرة مهجورة بعيدة، تصلها عدة قوارب كل عدة سنوات، بين أقوام لا تعرف العدَّ على أكثر من خمسة، لأنها لا تملك أكثر من خمسة أصابع، لا تعرف التحدي، المناقشة، النميمة، الكذب، الرياء، والقتل أيضًا. أريد النقاء، أريد الأشجار التي لن يغتالها أحد".

"حملتُ جثة منتصر النصير المقاتل الفنان الرقيق، حامل رسائل الحزب إلى كل مكان، حتى إلى جبل قنديل بصخوره القاسية، مات بين يدَّي، اختفيت معه – ولا أقول جثته – بين الصخور، لأننا اتفقنا أن يحمي أحدنا الآخر حيًا أو ميتًا، بقيت احتضنه ثلاثة أيام وليال، أحاول أن أدفئه وأنا أعلم أنه ميت، شعرت أنني لو أغافل الموت، أخدعه، قد يعود منتصر من العدم".

"تجسدت الخيانة والقمع والقسوة مع التفاني والتضحية والعطاء والشموخ أمامي، كل يوم يهجم علينا حلفاؤنا، مستخدمين أسلحة عدونا المشترك الذي تحولوا إليه قبل ساعات، هجموا على المقرات لنهبها وتم إعدام كل نصير يقع بين أيديهم".

"قبيل إغفاءاتي القصار ونومي الذي لا يصل إلى الثلاث ساعات أردد أسماءكم أحيانًا بصوتٍ عالٍ، فتوحي فريدة هودة وديع وسميرة الروح والقلب والعقل، أتذكر ما يقترن بكل واحد منكم، حرص فريدة وقلقها.. زعل هودة، ولن تتصالح إلا بعد أن تمسك بحنفية الماء وترش وترش كل شيء، ويا ويلنا في الشتاء، ولم تكن تنام إلا بعد أن أغنّي لها (بزونتي بزونه وشحلو لون عيونه)، يا ترى هل أصبحت الآن شابة فارعة؟.. وأناقة وديع واعتداده بنفسه؛ بل حتى غروره المحبب.. وحكمة ووداعة فتح الله.. أما كوثر ويوسف فهما سيبقيان كما هما بين الحنايا والحشا".

"قاتلتُ ساعات طويلة، أصارع الجوع والعطش، ما زلت مزود بشعارات ساخنة تحفزني للاستمرار، هل ستبقى ساخنة أم سيعلوها الصدأ، أم هل سأرويها يومًا لأطفالي لو ولدوا ؟ هل هناك أمامي أكثر من عراق، نعم عراق سيء وعراق أسوأ، متى أجد عراقًا واحدًا جيدًا فقط لا أقول غير ذلك؟!".

"مازلتُ حين أسكر – لو توفر العرق وهذا نادر جدًا – أناديك يا نخلتي اهتزي ليسقط البرحي علي ليتعتق ويزيد من سكري. ازداد عطشي، غشيت عيناي، كل ما حولي صامت، لا أسمع أي صوت

ولا حتى حفيف ورفيف الأوراق والشجر، ويبدو أنني غفوت أو أغمي علي، الجو ربيعي ولكنه بارد، نسمات هادئة تمر لا تنعشني، أحاول أن أبقي فمي مفتوحًا لترطبه بضع نسمات معبقة بالرطوبة. أغفو، أصحو وأغيب عن الوجود... لا أدري كم مرَّ علي، لم أعد أعرف النهار من الليل، أتمسك بالأوراق التي معي وأحلم بالتي أودعتها عند أصحابي لتصلك, أغيب وأغيب وأصحو على جسم حار دافئ يخيم على رأسي وينِّز سائلاً بطعم لذيذ في فمي، لم أفتح عيني لأنني اعتقدت أنها خيالات النَزع الأخير، لم أعد أميِّز الروائح ولا المذاقات، ولكن ما كان يندلق في فمي وبلعومي لذيذ جدًا... بالكاد فتحت عيني، وجدت نعجة قد وضعت ضرعها في فمي وهو ينِّز حليبًا... يا نعجتي الحبيبة كيف وجدتني، هل أضعتِ صغارك ووجدتني عوضًا عنهم لتفيضي علي بالحياة والحنان، أين البشر والناس منك؟".

"ذكراكم هي الحزام الذي يشد ظهري، خيالاتك التي أتوقع أنك تكتبيها لتبقى ينبوعًا لا ينضب، كم أتمنى ألا تتوقفي، ألا تهجريها، أحيانًا أعلن الصمت وألغي التفكير ولكنني أدافع، أسير أبحث عمن سقط، باع أو تخلى. ما يدور حولي يذهلني، أسمع أقوالاً غريبة على

مسامعي، لم أتوقع أن تقال، هناك من يذكر كلمات لا أعرفها؛ لا أستسيغها عن الكفار ووجوب قتلهم، فتاوى وتوبة وعزل للمرأة، تُرى من أين جاءت وكيف نبتت هذه السموم؟ نقاشات سخيفة قد تصل إلى التهجم عن مواضيع لا أتذكر أنني قد سمعتها من عمو هادي أو والدي وعمو فتح الله أو الجيران، من أين جاءت هذه الخرافات. من أين جاء هذا الـــــ (الله) الذي يعبدونه، هل هو نفسه الذي عبده أهل محلتنا وأصحابنا؟ من أين هذه الطقوس، ولِمَ الجدال عما دار قبل أكثر من ألف سنة، لِمَ لايحبون بعضهم البعض؟".

"مجموعتنا المقاتلة تقبل الجميع بصدر رحب، فيا ترى هل المجموعات الأخرى ستقبل الجميع بصدر رحب؟، من زرع هذه الأرواح والعقول بالعفن، الخبث وبالرفض؟ لدي إحساس بأنني سأعود إليكِ، نعم سأعود، سأعود يومًا".

كمن كان في عوالم أخرى أو غيبوبة؛ لملمنَّ الأوراق المهترئة، التقطتها سميرة من على صدرها وجيدها بعناية، وكأنها في حالة نشوة حب عارمة، احتضنت فريدة أختها بقوة، رغم شعورها بأنها

قد أصبحت حطامًا ولا تقدر حتى على النطق، غير أن سميرة بإصرار نظرت بعيون واثقة ثاقبة في الأوراق الذابلة قائلة:

– بديع زين، بديع قوي وإحنا لازم ناخذ قوى منو ومن صلابتو. عيوني فريدة لابد فتوحي يرجع بالسلامة، لابد هذا الكابوس إلو نهاي، لابد وديع ترجع لو صحتو ويتعدل حالو، لابد ناهدة تحقق أحلامها ويجي ابن الحلال إللي يعغف قدغه، الدني لازم تتعدل، لازم.

أطرقت فريدة برأسها، لم ترد على كلام سميرة الواثق، إذ أنها قد استسلمت لليأس والخذلان وأصبحت حطامًا لا يترمم، ما مرَّ بها أكبر منها، لم يتبقَ لها سوى اللجوء للعزلة والصمت.

• • • •

سنوات القحط والوغى

يوم البوح

- اسمعي اسمعي هاي...

قالت سميرة لناهدة بضجر..

ردَّت ناهدة:

- ولك خالة سميرة ما تسكتين لخاطر الله، ولك خالة سميرة إصحي كافي خيالات ما أغيد أسمع، كوني واقعية دوغي لكي على حياة حقيقية مو خيالات وأحلام لا اتطعم ولا تشغب، من كنتو طفلة زغيغي تجغجغيني تشوفيني الغيم وتقولين هذيك الغيماية تشبه سفينة وهاي كأنه قصر وهذيك كأنه بنت ليبسي نفنوف طويل، بطلي عاد هسة أنا بنت كبيغي ومصدومي مثلك.

توقعت من زمان فات غاح أتزوج وأرتاح ويكون لي أولاد وبنات، إنتي اسمعيني هسة أنت شاركيني ألمي، ماما ما قبلت احكي عن الموضوع لأي أحد وأنا احترمتوا طلبا لأن كانت كن صاغت نص إدمي، تعغفين إشصاغ بيني وبين الخطيب الأفندي المحترم

ولويش فسخنا الخطبة؟ لأن بكل بساطة طلبتو طلب بسيط ومعقول؛ أنا ما أغيد يجي أي قس أبوس إيدو ويلبسني المحبس، لأن يسوع محد باس إيدو، وما أغيد احتفال كبيغ بالبيعة لأن يسوع قال جسدكم هو الهيكل.

غدتو نغوح أنا وهو وأهلنا ونسوي البراخ ونطلع، أنا ما ممكن أنسى إللي شفتونو من قس يعقوب أبدًا، وخفتو أول مرة أحكي ومن حكيتو الكل سكتوني، حتى بابا اليساري والنص شيوعي ما قبل يسوي شيء، ومن يوما بعد ما أخش بيعة، وإذا أصلي أصلي وحدي بالبيت، قس يمد إيدو وبالكوة يفتح دكم بلوزي ويحاول يتحاغش بي، ويجلب بي ويغيد يلعب بديوسي، ومن قال لازم اكو قسان، منين جتي ها الفكرة يسوع ماقله أبدًا، لكن طلع الأفندي الخطيب قدوس قدوس ويعبدم للقسان، أي شيء يسوون لازم نغفرلم، شلون خريط هذا، شلون ظلم هذا، يقلي اسمعوا أقوالهم ولا تفعلو أفعالهم يعني نفاق وكذب.

أنا أخذتو موقف يوم إللي غحتو ويانو للبيعة، وما قبلتو أصلي مثلو وأصريتو على رأي، وطبو مرض للزواج والأبو الزواج إذا ما كان متكافئ، وشوفيني حياتي ماشية برتابة وملل بس بكرامة

وشيلة غاس، أداوم وأشتغل وعندي صديقاتي وأحاول أقضي يومي شلون من كان والله يفرجه فد يوم.

أيام الحرب أنت قعيدي تتذكرين تتخيلين النصر، والجثث تجي بالميات، حتى طلاب مدارس المتوسطة أخذوهم للمحمرة وانقتلوا ما ظل ويحد منم، وفوق الحمل يفترون على البيوت يجغجغون الغجيل بالكوة للجيش الشعبي المصخم، تتذكرين شكتبتي؟ أنا أتذكر كل كلمة من إللي كتبتيه وقته أنا كنت شابة يالله ثمنطاعش سني عمغي وكنت أحلم بالزواج من ويحد يحبني وأحبو، وكنت أغيد يكون لي عائلة وأطفال وغجال يشاركني أفكاري وتطلعاتي ويناقشني ونتوصل إلى رأي ويحد، أضحك لضحكتو ويتونس على سوالفي، نقعد نكركر ساعات، نشتغل سوه ونتعب سوه ونتقهر سوه ونفغح سوه، لكن الأفندي وكل شبابنا العراقيين يغيد بس كلمتو إتصيغ، من قلتوله على إللي سوانو أبونا يعقوب قام يستهزء بي ويسخفني ويقلي لازم تغفريلو وتنسين، غلطة وانتهت القصة، وأنا اعتقد أنتي متوهمة، قلتولو شنو مومتوهمي قلتولوو منو قال انتهت القصة، أنا قاومتونو بس ممكن تجي وحدي غيري خوافي تخضع له غصبًا عنا ويغتصبه، الأفندي قام يضحك علي.

من شفتونو ما مهتم قلتولوا بس أنا ماغيد عغص كبيغ بالبيعة، ندخل أنسوي البراخ بس أهلنا ويانا إحنا غير نحتاج ورقة إثبات زواجنا رسميًا؟ هي الشغلي مو أزيد من هذا نطلع أنسوي حفلة بالنادي والنشيان ما أغيد يجي قس يباركنا، ما أغيد أي قس يدخل بشكل شخصي بحياتنا، بس عنده واجب من موقع رسمي بس، واجبو يسجل زواجنا وخلص، قال لا ميصيغ لازم نمشي على التقاليد، قلتو لويش ميصيغ؟ اكو نص بالأنجيل يقول لازم اتصيغ رنة أو ونة واحتفال بالبيعة ويجي قس؟ هو مجرد وثيقة رسمية وإعلان عن الزواج، الأفندي انزعج وقال لا لأن يسوع ما غاح يباركنا إلا من القس يخلي إيدو على غاسنا ويقرأ الإنجيل وغيره وغيره من الخدمة والطقوس كله لازم هاكذ اتصيغ حسب الأصول، أمي وأبوي وجدي وجدتي كوي هاكذ اتزوجوا وأنا كوي لازم أسوي مثلم أنا ما أكسغ التقاليد أشون حكي عي تحكين، هذا أشون حكي عي تحكين أنا ما يمشي معاي هكذا حكي افتهمتي، ولازم أول أحد بعد زواجنا ندخل البيعة ونقعد بأول سره والكل يشوفنا والقس يرحب بينا ويباركنا، أشون تقولين بس ورقة رسمية أشون هاكذ توصيفين طقس ديني مقدس مهم نبدي

بينو حياتنا، نحترم البيعة والقسان ونمشي على الطريق الصحيح، هي مو بس ورقة وتسجيل زواج عي تخربطين، أنت بالحكي ما مقبولي كوي منك.

أغيد ويحد ايفهمني شنو علاقة يسوع بإيدين أبونا يعقوب لو أبونا هرمز؟ وشنو علاقة يسوع بأول يوم أحد من بعد زواجنا؟ أي ولكم يسوع ولد فقير وكانوا يعيغونو ويقولون شوفو ابن النجاغ لو شوفو هذا إللي ما عندوا أب ويا عيني علينو مات فقير على الصليب ما قال أبدًا ولا طلب هاي الطقوس، هاي كله دخلت على تعاليم يسوع إللي غاد بيه خير البشر، وطلب وقال أحبو بعضكم بعضًا، مو سيطروا على بعضكم بعضًا، ليش تلعبون بخلقتو وتصطفون سوالف علينو، أشو ما سمعنا يسوع زوج أحد ولا انكتبت بالأناجيل الأربعة، أنا قريتو أربعته وما شفتو بيا أي شي من اللعاويص هذه.

خالة سميرة تتذكرين يوم إللي جيتو وشمغتو جنطتي على الكاع بعصبية وشلحتو حذائي، وذبيتو كل فغدة بجهتين متعاكستين وصرختوا هذا الخطيب ما يفتهم وحمار، أنت ما سألتيني شكو

إشصاغ هسة أحكي لكي لأن ماما قالت سدي الموضوع وأنسينو، تعغفين إشسوه؟ خلاني أمشي من ساحة الطيران إلى رخيته لبيعة السريان شنو الأفندي يغيد يصلي للعذرة، قلتولو مو هاي بيعة الأرمن خطوتين من هوني تغيد اتصلي ادخل وصلي، يقلي اشون بقة أصلي هوني، كوي تغيديني أصلي بهاي بيعة الأرثوذوكس، قتولو وشنو يعني بيعة يعني بيعة يعني يسموا بيت الله يعني النيس اتصلي بيه، قال لا كوي ما يصيغ هاكذ تحكين كلمن ايصلي ابعيتو وعلى طقسو، جاوبتونو يعني عندك الطقوس أهم من الإيمان، قلي كوي أنت ماقيده أعغف اشون عاتفكرين.

والأضرب من هذا دخلنا للمتحف الوطني للفن كان أكو معرض رسم لجماعة شباب، مكتوب عليم بالجريدة خوش مقال، وما قبل يدخل قتولو غوح أنت للسوق لشارع الرشيد ومن اتخلص تعال علي، قال واشكو عندي بالسوق؟ دخلتو أنا للمعرض وهو الأفندي قعد بالباب يم الفراش والحارس، بقيتو أنا اتفرج على اللوحات وبيدي دليل المعرض وكل ساع يجي يقلي ها ما خلصتي فرجة بعد؟ اشنو هاي بقه زي الخرابيط إللي عا تتفرجين عليه، طقت غوحي منو. وفوق الحمل بس طلعنا يقلي أغيد أغوح أصلي

ومقبل يصلي ابيعة الأرمن ولا قبل نركب نفرات ودقيناها، مشي إلى بيعة السريان بارخيته بحجة يغيد يتفرج على محلات وشوارع بغداد، هم زين كانت بيعة السريان مفتوحة والشماس وحدو، دخل ولزم إيدي وقلي يالله على العذرة قلتوا ما أغيد، أنا أغيد أصلي لشفيع المظلومين، أصلي لمار يوسف إللي كان خطيب مريم العذره، بحلق بوجي وقال ومنو إللي عملوا شفيع المظلومين، أنا كوي ما سيمع بهاكذ شي، بهدوء أعصاب جاوبتونو لأني كنتو أغيد اتحدانو وقلتو:

- أنا طعيتونو هذا الاسم والصفة لأنه المسكين انظلم كثيغ بحياتو.
- بقة زي اشون انظلم؟
- خطيبتوا مريم إللي كان يغيد يتزوجه أخذوا منو.
- اشني إش قلتي بقه؟
- البنت خطيبتو مريم قعيدي تصلي بالمعبد، لا علم ولا خبر، جا عليه جبرائيل وقله أنتِ حامل من الله، لا أحد أخذ رأيه لا طعاها وقت تقول لخطيبه لأمه لأبوه، رأسًا حبله هذا مو ظلم؟
- اغشعي اقلكي كوي أنت ثخنتيه، قمتي تكفغين أنا ما أقبل هاكذ حكي أبدًا فتهمتي؟ لو أفهمكي بالقوي أجيبكي ابسطغه اتعدل

دماغكي. إحنا سمعنا سمعتكم مو زيني أبوكي كان بالنكرة لأنه شيوعي بس قلنا ميخالف، بصاية قائدنا البطل وسيطرتو كل الشيوعين صاغوا جغديه.

صرختو علينو أعيط وأقول: ولك هيلة إتمد إيدك علي أفتهمت، أبوي يشرف غاس إللي خلفوك، لأنه إنسان عندو مبدأ، ولعلمك أبوي ما كان بسجن نكرة السلمان كان بسجن الحلة، هذا محبسك وحلقتك اخذم وغوحا بلا رجعة، ولي من عابت هالشكولات، دز أمك حتى تاخذ النشيان وأنعل أبو أبوه إللي تتزوجك، لأبو مقدساتك لأبو تقاليدك السخيفي، الله مالكم مو الله إللي عغفنانو من يسوع، يسوع علمنا المغفرة والحجي مو العنف والكره، الله مالكم أنتم سويتمو إللي خلق اشكولات مثلكم لا عقل ولا دماغ، حمير ولاد حمير متصيغون أوادم. جا الشماس وسمع عياطي وصراخي وشتوماتي وكفغي، لزمو أو ودانو بعيد وقلو ما أخليك إتمد إيدك على ها البنت عيب ابني، يسوع علمنا الغفران، وقلي بنتي عيب ها الحكي لا تكفغين، امشي أوديكي لبيتكي، قلتولو شكرًا أنا أعغف طريق بيتنا، أنا أغوح وحدي، ما أغيد مساعدة لو وصايه من أحد أشكرك... يسوع يحرسني بطريقي.

بس أنا ناهدة هذا الحكي والعياط والصياح ما كفاني، مليتو حلقي تفال ومشيتو يواش يواش، وقفتو قبالو وجبتنو بتفلي بنص وجو ومتو من الضحك حتى الساعوغ بدا يضحك وركض، طلعتوا وأنا قا أغجف ودموعي اتصب وميتي من الضحك.

ومن يومه يبست أحلامي وعغفتو ماكو فايدة بهذولي النيس، لازم أتعلم أعتمد على نفسي بس، وبلا خيالات وحكي فارغ، وأفكاري تغيرت وحسيتو شقد أنا قوية وشجاعة، وأقدر أتحدى الدني كله، ولازم أعيش على مبادئي أنا وأفكاري وقوتي أنا وبس.

انتهت أحلامي وضيعته أيام الحرب واندبت بالشط، وأنت حضرة جنابكي تكتبين عن المعركة، وكأنه معارك بين ملائكة الله يحميم وشياطين الله يخغقم بناغ جهنم، ولك ذولي شباب يندزون للموت بالميات أو بلا عدد، لأن البلدين حكامم حمير وخغة وخونة هذولاك وإحنا لتخليني أعلي صوتي عليكي، ثنينم عملاء لامريكا ويكذبون علينا من يسبون امريكا، البعث خبصنا بالقائد الضرورة وطريق تحرير القدس يمر بإيران، ضغبلوا على إسرائيل صاروخين مثل الضغاط، وايران كم صاروخ ذبت على اسرائيل والصهاينه

ولا ويحد، وقعت على الفلسطينين مو على الصهاينة، والخميني مو
هو سوه الثورة على الشاه، الشعب المسكين سواها، وجا هو
حاضغ محضغ بطياغة فرنسية وباقه الثورة منم، وكمخ النسوان
ورجع الرجم والقتل، ويقولون طريق القدس يمر من بغداد، شوفي
شلون حقارة من الاثنين، من صدام ومن الخميني، والأفندي
الخميني كتب كتيب سمانو تحرير الوسيلة، يقول يجوز مفاخذة
الرضيعة، وصدام النذل بدا يقطع الخشوم والأذان والغوس بحجة
الأخلاق والفضيلة والدين، اشو احنا عشنا سوى وما سمعنا اكو
ها الحكي بالدين ، شاركنا بيبي فاطمة وعمو هادي وخالة منيرة
كل شي كنا عائلة وحدي مو عائلتين بالفغح والحزن وما سمعنا ها
الحكي، هو صدام أتعس وأحقر إنسان، البلد كان ينقصف ليل
نهاغ بالصواريخ، وصوغ الجثث مليان التلفزيون بيه بصوغ من
المعركة والأفندي يخطب ساعات، ونفط ماكو، وبانزين ماكو،
والأطفال بالصنطة يغنون (ها يا سعد يا جدنا تنكه نفط ما عدنا)،
ولو سمعم ويحد من الجيش الشعبي، لو أي ويحد يخبر عنم يغوحون
تسعة كاصر، همة وأهلم وجواغينم ولكل كرايبم للدرجة الرابعة
سيمعه عن هكي ظلم؟.

استمرت ناهدة تتكلم رغم علمها بأن سميرة ما زالت بعيدة سارحة:

- أنا كنتو أغيد أعيش الواقع، الحرب قا تشتعل شعل، وكل الشباب ياخذوم للجبهة، وأنا أعيش حياة طبيعية، والله يعغف شغاح يصيغ، وماكو حرب تنتهي على خير أبدًا، كنت أغيد أتزوج أتمتع بحياة عائلية ويصيغ لي أطفال، مهما كانت هاي الحياة قصيغة وصعبي لأن عمغنا قصيِّغ ولازم نتمتع بكل دقيقة ما نضيعه، بس كنتو غيرقي بأوهام، حماس واندفاع، الله عليكي اتطلعين إللي كتبتينو؟

تصمت سميرة، تأخذ ناهدة الدفتر بحافته المهترئة من يد سميرة السارحة وتفتح صفحات تلك الأيام وتقرأ:

"جنودنا حمر الخدود تلمع أجسادهم المملوءة، قيافتهم راقية، لكل واحد دبابة خاصة به، مزودة بأجهزة إلكترونية تنذره بمكان العدو، وله مكان مريح داخل ينام به، إلا أنه يُبقي كل الأجهزة تعمل بموجب جهاز خاص لتنذره إذا اقترب العدو منه، ولديه أنواع المأكولات والمشروبات والكثير من الماء وملابس نظيفة، وما أن تنذره الأجهزة بقرب العدو يضغط على أزرار فتنطلق القاذفات

وتقتل المئات من الأعداء، الذين تقدموا وهم حفاة، وبملابس مهلهلة، ويبدو عليهم الجوع والمرض".

- **نص لتقرير صحفي فرنسي زار بغداد خلال الحرب:**

"عدتُ إلى باريس بعد سفرة إلى العراق بلاد الرافدين، التي تخوض حربًا، لكنها بلاد الأسود الأشاوس، بلاد الحرية والرخاء والنعمة، بلاد الحضارة والإنسانية، اشتقتُ لشوارع مدنها المهندسة بشكل عملي لتمر السيارات بدون أي ازدحام، ومحلات العبور المخصصة إن كانت أنفاقًا أو جسورًا مرتفعة، أم على أرض الشوارع كلها جميلة مزوقة بالزهور.

لوحات الفنانين المبدعين الكبار تزيد من جماليات بغداد فإنها عند كل منعطف وساحة، هنا لا نشعر بالحر لأن الفكر الهندسي العراقي المبدع اخترع لنا مظلة كبيرة تغطي بغداد، وتنفث هواءً ورذاذًا خفيفًا لا نشعر به حين يهطل على أجسادنا، بل يمر بعذوبة سحرية، أنواع جميلة جدًا من الطيور تحلّق فوق رؤوسنا، تشدو بنغمات تسكر السامع.

نتمشى العصاري بين الدكاكين، نختار أجمل المأكولات الأجنبية والعربية، وأنواع لحوم الأغنام والدواجن العراقية متوفرة بكثرة، وكذلك الفواكه؛ من موز وبرتقال، وكل أنواع التمور وأنواع لم يرها العراقيون من قبل، أخذت تصل الدكاكين والمحلات والأسواق الكبيرة بوفرة وغزارة، حتى الملابس الجميلة بماركات عالمية، والمركبات بأنواعها تسير بدون ازدحام ولا ينقص أي شيء، الأطفال فرحون يمرحون بحرية في الشوارع النظيفة، النساء والرجال في فرح ومرح، الشباب يذهبون إلى المتَنزهات، السينمات، المسارح والمعارض الفنية، المهرجانات... كل شيء هادئ، مريح، العدو يتراجع بسرعة فائقة ولا يوجد أي حراك أو مناوشات على طول الحدود الآمنة السالمة".

———————————

– خالة سميرة هذا خيال لو مرض؟ إحنا أبو أبونا اشتعل وأنت عيشي بالوهم والخيال، بابا انقتل بمعركة الشلامجة وما نعرف ليش وشلون صدق لو كذب، تتذكرين من جو أخذونو بالكوة الجيش الشعبي، وكان وياهم كاظم جيغانه من فرقة الحزب من المنطقة،

بهذلونو وجغجغونو، وماما رأسًا ثاني يوم جاها جلطة قلبية وظلت صحته مضعضعة، من صاغت الدني صعبي وحصار وأدوية بالكوة انحصله، ما طولت ماما وانتهت، بقينا غاسي وغاسكي وية درد وديع، تتذكرين من قمنا نبيع كتب من مكتبة بابا، وبعنا سيارة عمو بديع، وبعد وبعد ويحد اشيتذكر دا يتذكر كل أيامنا كانت عزا وصخام.

قلبت ناهدة دفتر سميرة الصغير السميك بحافاته المهترئة وأعطته لخالتها واستلقت على الفراش تبدو منهكة ضجرة، أخذته سميرة تبدو قد صحت نشطة من غفوة طويلة مريحة، قائلة بحيوية وكأنها لم تسمع ما قالته ناهدة، وتستمر متجاهلة كلام ناهدة:

_ اسمعي اسمعي هاي... من بعد عشغ سنين من هذيكي الفترة قام الحاكم العام ووزع أوراق على الجميع، وكل ورقة فيها سند ملكية بيت ملك وحقل فارغ، ليكتب اسم المنطقة، وسيارة تيوتا أو ماليبو وحقل فارغ ليكتب فيه عنوان الوظيفة التي يريدها، وكذلك مع جواز سفر نافذ لمدة عشر سنوات، واستمارة مغادرة بحقل فارغ ليملأ اسم البلد الذي يريد أن يقضي فيه إجازة لمدة أسبوعين مدفوعة المصاريف، مع مصروف جيب بألف دولار.

أخذت أنا ورقتي وقررت الذهاب إلى بلد اسمها (بلد المحبوب). اختاريتو اسم هذا البلد على اسم أغنية أم كلثوم (على بلد المحبوب وديني)، شتقولين ناهدة هذا مو خوش اسم اختاريتونو؟.

أطرقت ناهدة بيأس، تأوهت بحسرة قائلة:

– عرب وين طنبورة وين؟*

قاموا طعونا بطاقات السفر بس ما كانت على سيارة أو طيارة، كانت على صواريخ مريحة مصنوعة هوني ابغداد، وكل صاروخ يأخذ ألف نفر، ويوقف بأي مكان وينزل المسافر.

– اسمعي، اسمعي ناهدة، هاي كلش حلوي، الصاروخ يقف ولا نشعر به ينْزل المسافر ويحلق الصاروخ، ونحن إما في المطعم أو المقهى على الصاروخ، قدموا لنا أحسن طعام من الدجاج البرازيلي وتمن العنبر وسمك بز وبني مسكوف، الأكل موجود دائمًا على موائد مزوقة بالورود ويوزعون الهدايا علينا، من أفضل البضاعة الأجنبية؛ إنكليزية وفرنسية وأمريكية، من عطور وحلويات جكليت ماكنتوش وأحلى الملابس، كلها من أرقى الماركات من

* مثل لإنسان متبطر وهو مثل له قصة ظريفة.

باريس ولندن ونيويورك، من كريستيان ديور إلى شانيل إلى أديداس وبوما وبعد وبعد.

قائد الصاروخ قال هذا عاشر صاروخ اليوم انطلق من العراق، ويتوقع ينطلق كل يوم مئة صاروخ، وقسم من الصواريخ تحمل من ألف إلى ثلاثة آلاف مسافر، وكل النفقات مدفوعة الثمن طبعًا. أنا جلست بين أربع نساء قلن لي يقدر الإنسان يطلب أمنية وتتحق مهما كانت صعبة وما معقولة، من الذي كان يتصور أن دول الخليج ومن ضمنها الكويت وإيران وتركيا كلهم طلبوا أن يتحدوا مع العراق تحت اسم دولة عراق الشرق المتحدة، بغداد العاصمة الرسمية للاتحاد، مازلنا نحتفل بهذا النصر والإنجاز العظيم، عادت أمجاد سومر وبابل واكد ومجد عاصمة هارون الرشيد ونبوخذ نصر.

وزعت المضيفة علينا بوسكارتات اتجنن، كلها صور لبغداد النافورات والتماثيل والساحات والفلك، وخاصة صورة مرقد النبي ناناك السيخي بالكرخ، المعبد إيجنن مزوق ومذهب على نسق معبد امرتسار بالهند بس أصغر طبعًا، وبوستكارت بيعة اللاتين

والساحة إللي قدامه واسعة وكبيرة ومزروعة، والزياح* مال عيد الفصح الرهبان من كل العالم من أوروبا والصين وأفريقيا والعالم ملتمة تتفرج، وكارت جامع سوق الغزل (جامع الخلفاء) لا يوجد له مثيل أبدًا، وسوق الغزل امتد إلى مساحة أكبر إلى أبعد، وفيه أندر الحيوانات معروضة بشكل ما موجود بالعالم كله مثلها، وبوستكارت كربلاء والنجف يأخذون العقل، مساحة الجامع احتلت كل المدينة، وعلى البوستكارت يشرحون ويقولون سكان كربلاء والنجف تركوا المدينة وانتقلوا إلى بنايات سكنية جديدة حديثة، خارج المدينة وكربلاء كلها صارت مزار ومحج ديني، وعلى أطرافها محلات تبيع فاكهة كربلاء الشهيرة بطعمها اللذيذ.

– خالة سميرة الخيالات مالتكي ما تخش، ابعقلي ولا تعجبني!

بملل وضجر قالت:

– جيبي الدفتر...

بسرعة سحبته من يد سميرة وبدأت تقرأ من أول صفحة من الدفتر المتهرئ:

* مسيرة دينية.

- شوفي شنو هذا اللي كن كتبتينو كلو إهانات سخيفي مثل تصرف الزعيطيط ضد الدول العربية اللي صاغِت عدواة ويه ثورة تموز وأيدته الدول الكبيغي الاستعماريي اللي كرهت الثورة، ويمكن انعكست هاي التصرفات علينا أهل البلد وقاموا النيس يخيطون ويخربطون، اعغف صاغت اعتداءات على شخصيات عراقية وطنية معروفة وبشكل تافه وإجرامي ومؤامرات وأشكال أنواع، وصاغ مثل التأليه وعبادة الإنسان للنَزيه العفيف عبد الكريم قاسم اللي كان متواضع وبسيط ويحب العراق، يعني هذا شنو مو نوع من الفطارات والحكي الماصخ، عبالك ولاد ازغاغ قه يتعاركون،كل دول المنطقة كان عليم مؤامرات الاستعمار وتحديات ولازم الويحد يستعمل عقلوا والدبوماسية مو التهور وحكي ما بينو معنى من كل الأطراف سب وشتايم واغتيالات وقتل وإهانات.

ولك شنو هالخرط هذا حكي مزعطة ميخالف بوقته أنت كنت زعطوطة ومتفتهمين، ماما اتقول حظنة زين الحرس القومي من جو دخلو بيتنا برشاشاتم وصياحم عبالك دخلو إسرائيل، وغاح يحررون فلسطين ويطردونا إحنا الصهاينة، مو إحنا عراقيين دمنا مثل دمم، هم زين ما شافو هذا الدفتر لأن التهو من شافو عمو

بديع، لأنه كان صيدي مهمة من سنين يعادونه وهو ميخاف، يكتب بهالمقالات بجريدة اتحاد الشعب وما يهمو وما يسمع كلام، وأخذونو وياهم. وماما إلى هسة ما تنسى ذيك الأيام السودا. اشجغت وش شافت من قهر وخوف ورعب هيه وخالة منيرة المسكينة، من اعتدوا عليا نسوان بالمستشفى، ماما تقول خالة منيرة بقت مهزوزي وتخاف من خياله.

- بعدك تحلمين؟! إتشوفين ويحد مثل حبيبكي وخطيبكي بديع، وهو هم عقلوا كان بسبع خيالات يغيد يغير ولك أمي وأبوي شيغير هالنيس والبلد؟ يغيروا بالنضال مالو وكل ربعو لو ميتين لو مختفيين لو بالسجون؟ بديع غاح وانتهى، منغعف إشصاغ بينو عجب، أنقتل بغدر من كان يدافع عن العراق كلو، لو اختفى يوم إللي كان يوزع منشورات لومن التحق بالأنصار وبالبشمركة ويه بقية رفاقوا، انقتل غدر وجتينو طلقة من قناص، لأن قاموا يصيدوم أبشتاشان لو بالغاز بحلبجة وغاح دمو هدر، ما نعغف إشصاغ بينو أبدًا كل ويحد يحكي شكل.

أعغف غاح تنقهرين بس لازم أصحيكي من هاي الخيالات، بقيت سنين تكتبيه مليتي صفحات وتوصفين لغوات لا أتطعم ولا توكل،

وزادت خيلاتك بعد اليوم إللي اندق الباب وجا ويحد مانعغفو، دق الباب وسلم ماما أوراق وغاح ما قبل يدخل البيت ولا قال كلمي، بس قال خالة هاي الأوراق إلكم. قعدت ماما تقلب بالأوراق كانت كله بخط عمو بديع، جيبي الدفتر أغيد أقرا رسالة عمو بديع إللي سلمه ذاك الغجال لماما، بوقته ماما كانت كن صاغت نصه وما بيه حيل تتحرك، بابا بالجبهة منعغف أخبارو، وعمو بديع مهزوم منغعف وين، من أتذكر منظر ماما قدامي ينقطع قلبي.

قالت ناهدة بقسوة وضجر:

- قعيدي تكتبين وتتخيلين، تعغفين أنا ما كن قريتو إللي كتبو عمو بديع، ماما ما قبلت وقتا وقلتلي ميصيغ تقرين هاي رسائل شخصية وخصوصية لخالتكي من خطيبه، بس هسة أغيد أقراها مثل ما قريتو كل إللي إنتي قعيدي ساعات تكتبين لو تتخيلين وتحكي لي عنه وكنه حقيقة ياها، لازم ويحد يواجهكي بالحقيقة والحياة الواقعية، مثل ما خليتيني أقرا إللي كتبتينو أنطيني اشو الدفتر خليني أقرا.

رفضت سميرة ذلك، تمسكت بدفترها ذو الأوراق الذابلة وقالت:

– لا ما أنطكي ياها، هاي إيلي لوحدي وبس.

– ملازم، لا تنطيني ياها، بس أقلكي ولك يا خالتي هذا البلد ما يتغير، وغاح تشوفين يصيغ من سيء إلى أسوأ، مثل بول البعير، كلما جانو لي وغه لأن الحكام ما يبنون البشر بس الحجر، إذا ما يستثمرون الأوادم مو الفلوس، وإذا ما يحسون بالانتماء لهاي الأغض والشطين والحضارة الي علمت الدني كله الكتابة والعلم من سومر و بابل إلى أن جتي حكومات حقيرة وخاصة البعث وصدام المجرم دمر البلد وهسه جو هذولي وفغحنا وقلنا خلصنا اشو ذاك الطاس وذاك الحمام واتعس.

خالة منيرة وعمو هادي ومهدي بالسويد غاحوا، والأمراض كن هرتم هري، مهدي ضيع ميعغف شيسوي، تتذكرين إشصاغ بينا وبخالة منيرة من خطفو مهدي لأن اسمو مهدي، وبعد أسبوعين اختطفوا صديقوا لأن اسمو عمر، أحكي لكي هذيك التفاصيل السودا إللي تخبل الما يتخبل؟ لو أنت بعدك طيغه بخيالاتك، رجع مهدي فدوة لعينو نص عظامو مكسغة، أنا فغحاني لأن ماما وبابا غاحوا قبل وقتم، وقبل ما يشوفون هذا اليوم الأكشر، وبقينا أنا وأنت أو وديع، أنت الحالمة وعيشي بالخيالات، ووديع المجنون

والمخبل، وأنا طول عمغي المشاكسة والنقناقيه، غاح أسكت وأنجب والزملي كتيب أقرا من الكتب إللي قا اشتغيه من المتنبي كل يوم جمعة، بس غوحة المتنبي تريحني وتنطيني شوية صبر وتخليني أقول يمكن تتصلح الدني يمكن تصيغ أحسن، كل يوم تفجير وجثث بالشوارع صاغ القتل ونسه، خل أقوم أولي أغوح أشطف الطارمة، وبعدين أغوح أنجب بغرفتي وأشوف بزونتي رجعت ونيمي بفغيشي لو لا.

خرجت ناهدة مسرعة من الغرفة، بقوة وعصبية تاركة باب غرفة سميرة مفتوحًا مشرعًا، صاحت سميرة بها:

- ناهدة عيوني لا تصيغين عصبية، ولا تشطفين يم باب الحديقة، أخاف تفوت سيارة مفخخة على الشارع العام حبيبتي بس اشطفي الطارمة ها عيوني فدوة لا تزعلين.

بذهول وضياع جلست سميرة تراقب من النافذة ناهدة ترش الماء وتنظف الطارمة وتتجه صوب مدخل البيت، إلا أن سميرة ما زالت ممسوسة وبعيدة جدًا، في عوالم تسيطر عليها وتسيِّرها وفق أهواء ورغبات خارج سيطرتها، صوتها الخفيض يرافق وقع أقدام ناهدة التي تدق الأرض بخطوات واثقة قوية، وصوت الماء القوي الجاري،

عبر المضخة، يرتطم بالجدران والشبابيك وأشجار الحديقة، سميرة تستمر في ذهولها وتقول حتى الأحلام ممنوعة؟.

سمعت صوت ناهدة تتحدث، قلقت سميرة وتحفزت واقفة، رأت ناهدة تتكلم مع رجل كهل، يبدو رأسه فقط مُكلالاً بشعر أبيض عبر سياج البيت قائلة:

- أي عمي هذا بيت فتح الله اسطيفان زنبقة، لويش تسأل؟

قال لها بلهجة مرحة ضاحكة مستبشرة:

- أنتي هودة؟ أغني لكي بزونتي بزونة واشحلو لون عيونه؟

صمتت ناهدة مصعوقة مسمرة، ثم فجأة بصوتٍ عالٍ ردَّت عليه:

- شنو شنو منو أي أي أنا هودة.

ثم نادت بأعلى صوتها:

- عمو بديع، عمو بديع خالة سميرة، خالة سميرة هذا عمو بديع جا، عمو بديع جا عمو عمو عمو.

• • • •

النهاية



المؤلفة في سطور

- د. أمل بورتر
- بريطانية الأصل والجنسية، مولودة في العراق- بغداد، من أب إنجليزي من مدينة كارلايل - كمبريا، وأم عراقية عربية.
- اختصاص في الفن وتاريخ الفن من بريطانيا، العراق، الولايات المتحدة ،الاتحاد السوفيتي ومن روسيا الاتحادية.
- عملت مع الإدارة المحلية لمنطقة نورثامبريا لمراقبة وللإشراف عن التقدم الدراسي لأطفال الأقليات العرقية.
- حاضرت عن تاريخ الفن في كلية التربية الفنية في جامعة السلطان قابوس مسقط عمان.
- عملت كمستشارة لثقافات الأقليات العرقية لكلية نورث تاين سايد ضمن مشروع ترويج التعددية الثقافية.
- مستشارة حول العلاقات الفنية – الثقافية للأقليات العرقية وترويج الوعي الفني لعدد من المؤسسات المدنية غير الربحية.
- شاركت في هيئة استشارية حول قضايا المرأة في لجنة وزارية بريطانية ٢٠٠٢
- عملت في المتحف العراقي ببغداد لمدة أربع عشرة سنة.

- باحثة في الفنون التشكيلية، نشرت وتنشر المقالات في الصحف والدوريات والصحف العربية، ومواقع الإنترنت.
- شاركت في العديد من المؤتمرات واللقاءات الدولية، في العديد من دول العالم. وألقت محاضرات عن الفن وتاريخه، والتعددية الحضارية، بدعوة من جامعات ومؤسسات وجمعيات مختلفة عربية وعالمية.
- أقامت وشاركت في عدة معارض تشكيلية في كلٍ من: لبنان، العراق، السويد، سلطنة عمان، المملكة المتحدة، والنمسا.
- فازت بالجائزة الأولى للوحاتها التي عرضت في لشبونة/ البرتغال، بينالي البحر الأبيض المتوسط، عام ٢٠١٣.
- فازت بالجائزة الألفية، وهي جائزة نقدية وعينية، كما حصلت على زمالة الألفية، وشهادة تقديرية، عن بحث "دورالمرأة الإيجابي في درء الازمات - الحرب اللبنانية كدراسة ميدانية".
- نالت شهادة تقديرية من سلطنة عمان عن بحث عنوانه: "مساجد مسقط وتناغمها مع البيئة".
- حالياً عضو الهيئة الإدارية والمسؤولة المباشرة في منطقة نورث أمبريا لجمعية دعم اللاجئين، جمعية نشر التعدد الثقافي، جمعية إحياء التراث، ونقابة الفنانين التشكيلين في إنكلترا.

- البريد الإلكتروني: porter_e@hotmail.com

● صدر لها الكتب التالية :

- العراق ما بين الحربين العالميتين - سيرة ورسائل سيرل بورتر - الرحيل إلى مسوبوتاميا : ثلاث طبعات.
- دعبول : رواية . طبعة ثانية
- سوسن وعثمان : رواية .
- نـوار : رواية .
- الأميرة البابلية : ترجمة لسيرة "ماري تيريز أسمر" الرائدة العراقية
- كتاب ماري تيريز أسمر ورحلة امرأة عراقية خلال الحكم الفكتوري في بريطانيا باللغة (الإنكليزية)
- كتاب ترجمة أشعار الحكيم لاوتسه، دار فضاءات، عمان الأردن.
- البلابل لا تُغرِّد : رواية . شمس للنشر والإعلام، ٢٠١٦



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27238004

www.shams-group.net